عبد الباقي يوســـف

هوليـر حبيبتـــي

رواي ـــــة

في ضفة جفن الصباح الباكر ، عندما تتفتح مسامات الزهور ، عندما تستوي العصافير على أعالي الأشجار وتملأ الأجواء زقزقة ،
عندما تخرج الفراشات ، وتضفي على الصباح إشراقة الحياة ، تفتح هولير لؤلؤتَي عينيها ، وهي تتمطط في حرير فراشها الدافئ .
تجلس قليلاً ، تتأمل قلائد الهدايا ، وبديع التحف ، ونوادر الجواهر النفيسة التي تزدان بها حجرة نومها الواسعة من كل حدب وصوب .

تنهض باحتفالية مستمتعة بحركات النهوض الصباحي الأولى من السرير حتى تستوي واقفة على قدميها ، تمد خطوات إثر خطوات آخذة جسدها شطر إطلالة النافذة المشرفة على / البازار / .

تمتلئ نشوة وحيوية وهي تلقي نظرات تتأمل نوافير المياه ، قبة الجامع العتيق ، عقارب الساعة الكبيرة التي تطل عليها ، أسراب الحمام وهي تزيّن الجدران والأرض بحركاتها .
تمتد خطواتها إلى النوافذ الجانبية ، الخلفية ، المشرعة لاستقبال خيوط الشمس الأولى ، تتأمل معالم مدينتها الأزلية كأنها تنظر إليها أول مرة .

تجتاح شغاف فؤادها موجات نشوة غامرة ونظراتها تمتد إلى أبنائها يخرجون ببناهم القوية ، ولياقة أبدانهم من أبواب بيوتهم للتو ، يفرّكون عيونهم التي ماتزال تحمل آثار نوم عميق ، يدبّون بخطواتهم الواثقة شطر صنعاتهم .
يدندنون بمطالع أغنيات كوردية عذبة ، وهم ينتشون بسماع عذوبة موسيقاهولير الصباحية الأزلية الخالدة .
ينتابها شعور بالطمأنينة ، فتتجه بخطوات ملكية إلى ردهة حمّامها ، تستحم برحيق القرنفل ، تتنشف بأوراق ورد النرجس ، ثم تتجه إلى مائدة الإفطار وقد أحضرها الخدم بانتظار ولوج سيدتهم التي اعتادوا على طقوسها الخاصة منذ دهر بعيد .

بعد أن تفرغ من تناول إفطارها الصباحي ، تمضي بخطوات بطيئة صوب محراب جناح زينتها ، ثم تتجه كرة أخرى ، تجوب النوافذ نافذة نافذة ، تنثر أريج عطرها الصباحي الفواح على

أبنائها ، وزوّارها ، وسياحها ، وضيوفها ، وقد استوى بها المقام في أوج حلتها .
عندئذ ما تلبث أن تتوافد أسراب خلايا النحل من جهات الله ، تنهل نصيبها من عبير هولير الذي يفوق كل زهور الأرض لتستخرج منه غذاء ملكتها ، وهي تقدمه لها على طبق من ورق الورد .

يتوافد السياح من كل بقاع الأرض ، يجوبون أركان القلعة الأزلية ، يحاكون الأوابد ، يمارسون طقوساً قديمة ، يتبرّكون بملامسة الجدران ، يستنشقون عطر القرون الغابرة ، يطوفون المداخل ، الدوائر ، المنعطفات ، يصعدون المرتفعات ، يهبطون المنحدرات ، يتلمسون شغاف الآثار النفيسة .
لقد سحرتهم هولير ليقطعوا آلاف الأميال إليها كما سحرت قبائل الدنيا قاطبة من
قبل .
تستمتع هولير ، وتمتلئ شعوراً بألق مجدها ، وأنها تزدان في أوج فتنتها
الخلاّبة .

عندما يقع المرء في ثنايا عشق مدينة ، عندما تسحره ذرات ترابها ، عندما تسكنه شوارعها ، شارعاً شارعاً ، ضواحيها

ضاحية ضاحية ، أحياؤها حياً حياً ، أقضيتها قضاءً قضاءً ، أشجارها شجرة شجرة .
عندما تأسره بحبها ، وتهيمن على كل خفقة من خفقات فؤاده .
كم يطيب النوم في رحابها ، يروق المشي في دروبها ، ينتعش النسيم في محرابها ، تتلألأ الزهور على أشجار حدائقها .
تضفي على كل شيء مسحة من سحريتها ، كل شيء يتفوّح بعبق ريحها .

أدرك في لحظات أن هولير ليست كجميع المدن التي سافر إليها ، وأقام فيها .
إنها مدينة الحلم الأزلية التي لاتقبل أن يدخلها المرء كما يدخل غيرها ، أن يقيم فيها كما يقيم في غيرها ، ثم يتركها كأن شيئاً لم يكن .
إنها ترفض ألاّ تتميز عن سائر أخواتها المدن في أرجاء الأرض ، وهي التي استحوذت على قلوب ملوك وأباطرة وجبابرة وسلاطين وقادة الدنيا منذ فجر تاريخها ، هي التي ضعف الجبابرة أمام قدميها ، وهن الملوك أمام سحرها ، إستسلم الأباطرة لبديع قوامها ، خار السلاطين في حضرة هيبتها .

كل ركن في هولير يطفح بلمسة سحرمباركة
كل شيء يتعمد - طوعاً أو كرهاً - في معمودية هولير :

هديل الحمام على أسطح هولير
زقزقة العصافير على أعالي الأشجار في صباحات هولير الباكرة
قباب المساجد في أزقة أحياء هولير
إيقاع سكون الليل في بيوت هولير
متعة المشي الهوينا على فضة أرصفة هولير
حفيف الشجر في شوارع هولير
تذوق قشدة غفوة القيلولة في ظهيرات هولير .

ليس في هولير موضع غير قابل لخفقة عشق
ليس في هولير لمسة غيرقابلة لهمسة قلب
كل ما في هولير يطفح في نظره بألق فتنة الجمال .

حينئذ يشدو فؤاده كما لم يشد من قبل :
ما أبهى خصلات الشمس في ثنايا جدائل شعرك ياهولير
ما أروع معالم غروب الشمس على ضفاف ضواحيك ياهولير
ما أجمل ظهيرات القيلولة في أركانك ياهولير
ما ألذ احتساء قهوة في فيء عصرك ياهولير
ما أطيب عطر العشاء في أماسيكِ ياهولير
ما أعظم شأنك ياهوليرتي
ما أسماك ياهولير وأنت هولير .

هكذا بدت هولير مدينة زاهية في ناظرَيه ، تُكحل عينيه بكحل لمسات ولوج رحاب مملكتها السحرية .
يتأمل جماليات مقدمات معالمها ، وهو يطلب من السائق كي يخفف من سرعة السيارة ما أمكن حتى يملي عينيه من مشاهدة جماليات مداخلها ، ينتشي بشم عبير عطر ترابها الفواح الذي بدأت تنهمر عليه زخات مطر رذاذية ، وهي تشرع ذراعيها مرحبة بكل زائر وضيف على رحب وسعـــة .

تتمهل عجلات السيارة ، وهي تستوي على الطريق بتؤدة على إيقاع أنغام أغنية كوردية بمذاق سحرية اللهجة الصورانية ، حاملة عائلته الصغيرة ، وحقيبتين استطاعت زوجته أن تدس فيهما بعض ما وقع في يديها ، وهي تغالب فيض الدموع الذي أخذ ينفجر من نبعَي عينيها ، وثقل الغصة التي استقرت في خرزة حنجرتها ، مودعة بيتها الذي قد لن تراه ثانية ، بيتها الذي أثثته آثاثاً آثاثاً ، طلته جداراً جداراً ، أضفت عليه لمسات جمالية لمسة لمسة .
بيتها الذي تحول مع الأيام إلى مكمن لمخبأ أسرارها ، وشاهد على مراحل ولادة ونمو كل طفل من أطفالها .

بيتها الذي تحولت فيه من فتاة إلى زوجة ، من زوجة إلى أم ، من أم إلى شريكة حياة أبدية لرجل سوف تلازمه في كل خطوة يخطوها .
بيتها الذي تتوجت فيه سيدة ، وراودها إحساس لأول مرة بلذة الملكية .
بيتها الذي غدا مستودعاً لذكريات حقبة تحولية مفصلية من عمرها .

هاهي تودعه كُرهاً كي تنجو بأطفالها من براثن حرب أهلية بدأت تلوح في الأفق بكل ماتحمل من مفرزات ، فقد تكاثرت عمليات خطف الأطفال من المدارس ، من الشوارع ، من أمام الأبواب ، خطف الرجال ، خطف النساء طلباً للفدية ، بدأت أصوات الرصاص تتعالى في الطرقات ، قصف بيوت آمنة بالصواريخ ، اغتيالات في الطرقات ، أمام أبواب البيوت ، انفجار سيارات ملغومة ، إنفجار عبوات وقنابل في الطرقات ، انعدام وسائل الحياة حيث لاوقود ، لاهاتف ، لاكهرباء ، لاغاز .

إرتفاع أسعار المواد التموينية ، إنعدام حاجات أساسية للمعيشة في ظل فلتان أمني تعجز فيه الدولة أن تحمي حتى أقطابها الذين تطالهم عمليات الإغتيال وهم في أوج قياداتهم العليا لأمن البلاد .

الأمر الذي أدى إلى موجات نزوح مرعبة بين مختلف الفعاليات الإجتماعية ، حيث أدت عمليات خطف الأطباء ، والأثرياء ، والوجهاء ، والصناعيين ، والتجار ، إلى حالات نزوح متدفقة إلى مختلف أنحاء العالم ، رأت الدولة أن تواجه ذلك بالحدّ من منح جوازات السفر ، فبات الحصول على جواز يستغرق نحو سنة ، مما أدى إلى ظهور احتكارات في بيع جوازات سفرفورية بأسعار مرتفعة .

سنة وثمانية شهور مضت على الأزمة ، وهو يؤجل الخروج شهراً إثر شهر متشبثاً برائحة المكان بانتظار أن تضع الحرب الفتاكة أوزارها ، بيد أن التصعيد مع كل شهر يأخذ بعداً جديداً ، يهدم بيوت عشرات الآلاف من البشر ، يسحق أحلامهم دون رحمة .

ينظر في عيون أطفاله الصغار، يشفق بهم وقد حُرموا من كل شيء ، حتى من الوقوف لحظة أمام الباب بعد أن تم خطف طفل من الجوار ، وبعد عدة أيام استطاع والده أن يتدبر الفدية التي تم طلبها منه ، وأعطاهم إياها حتى اعادوا له فلذة كبده .

كلما يأتي صوت ، يخرج سكان الحي كله من بيوتهم بهلع وكأن زلزالاً قد وقع تحسباً لسقوط قذيفة مباغتة على الحي ، في وقائع حياة ملؤها الهلع والرعب والقلق .

أحياناً يلعن ما أقدم عليه الشاب التونسي الذي تسبب في إشعال فتيل تفجير الثورات العربية ، تسبب في إراقة كل هذه الدماء من أجل أن يستقيل رئيس ، ويحل نيابة عنه رئيس آخر .
لقد انسحب زين العابدين بشجاعة قبل أن يرى الصواريخ تنهال على ضواحي بلاده ، وعقبه حسني مبارك محافظاً على حياة وأحلام وآمال ملايين الناس ، بيد أن العقيد لم يكن يتخيل نفسه إلاّ عقيداً ، فإما أن يكون عقيداً ، أو لايكون . لم يكن يتخيل نفسه وقد تقاعد به الدهر .
في اليمن ، اقتنع الرجل بفكرة تسليم السلطة قبل أن تقوم الطائرات بإلقاء البراميل المتفجرة والأسلحة الكيماوية على الناس وهم في بيوتهم .

وهاهي بلاده التي باتت كمثل نفاثات في عُقد ، يكتنف فيها الغموض كل شيء ، تنزف نزيفاً داخلياً دون أن يجسر أحد من تقديم ما يمكنه الحدّ من سيلان هذا
النزيف .
هكذا في لحظة مباغتة يمكن لكل شيء أن ينقلب رأساً على عقب كما لوأن زلزالاً قد وقع .
يوم الخامس عشر من مارس ، عندما اشتعل فتيل الزلزال ، كان مع أطفاله في حديقة الحيوان بـ دوما ، في قلب العاصمة ، لم يكن يخطر لأحد أن أمناً مستتباً كهذا سينقلب رأساً على عقب .

في ذاك اليوم المعلوم بدأ الناس يغيرون حساباتهم ، وينظرون إلى الغد بشيء من ضبابية ، حينها قطع إجازته وأعاد أطفاله إلى مدينته في الشمال .

بيد أنه يعود ويبارك تلك الشرارة التي أوقد فتيلها ذاك الشاب جاعلاً من حياته قرباناً لأجيال قادمة تتمتع بحياة حرة كريمة كبقية شعوب المعمورة .
ذلك أن مهر الحرية نفيس ، مهرها دماء ، وأحلام ، ودمار ، ومهالك ، فإما أن تغامر الشعوب وتقدم عليها بشجاعة الفرسان ، أو تبقى مسحوقة أسيرة أبد الدهر .

في تلك اللحظات الحاسمة وهما يودعان أقرب أركان الدنيا إلى قلبيهما، تبادلا نظرات مثقلة بالدموع وهما يجرّان خطواتهما بتؤدة من بيت العمر، يمسحان جدرانه جداراً جداراً، يتأملان أركانه ركناً ركناً، يخرجا خلسة وهما يحملان الحقيبتين كي لايراهما أحد وكأنهما لصين خرجا بحقيبتين مسروقتين.

حتى الأطفال حينما لمحوا أبويهم في خلسة مبهمة كهذه، ركنوا إلى حالة من هيبة صمت مريب منتظرين ما سيلي ذلك.

كرر على مسامع زوجته بنبرة صوت خافتة: أنتِ متأكدة أن أحداً لم يشك بالأمر ؟

أكدت تقول: إنها مسألة حياة، أو موت، لم أدع لأحد مأخذاً

للشك لحظة واحدة.

ثم أضافت بحذر جمّ وهي تشدد على الكلمات: حتى الهاتف كنتُ حذرة به منذ الأسبوع الفائت عندما بدأنا نرتب أمرنا للخروج، أعلم جيداً أن تسريب أي معلومة يمكن لها أن تودي بنا جميعاً كما حدث مع عائلات كثيرة مثلنا، خاصة وأن عملك هنا يحمل حساسية، وسينتشر خبر سفرك بسرعة البرق.

في الصباح الباكر كان عليهما الاستعجال ما أمكن قبل أن تدب الحركة في الشوارع، وحينها قد ينتبه أحد ويريب في الأمر خاصة وأن موجات النزوح أخذت تتصاعد.

كان الطقس صقيعياً، وكان عليها أن تلبس الأطفال ثياباً شتوية دافئة، وهم يتجهون إلى مدار مصير مبهم كل الاحتمالات فيه ممكنة، تاركين دياراً لم تعد فيها الحياة ممكنة.

كانت صبيحة يوم جمعة، حركة السير فيه بطيئة، بسبب العطلة الرسمية والشعبية من جهة، وبسبب كثافة المظاهرات التي تنطلق من المساجد من جهة أخرى.

فتح الباب، وخرج يهرول على عجل حتى بلغ الطريق العام، أحضر سيارة أجرة وعلى جناح السرعة أصبحوا جميعاً مع الحقيبتين في السيارة التي اتجهت بهم إلى حيث الكراج الذي تنطلق منه الباصات إلى «قامشلو».

ابتعدوا عن البيت دون أن يراهم أحد، دون أن يلوحوا أكفهم

بوداع أحد، دون أن يلوح أحد كفه لوداعهم.

كان الترتيب أن يحافظوا على سرية خروجهم، ولا يتركوا إشارة يمكن أن تجعل أحداً يشك بخروجهم من البلاد مهما كان مقرّباً، لذلك كان الوداع من طرف واحد، حيث قاما بزيارة بعض المقربين، وأمضت يوماً باتت فيه مع الأولاد عند أهلها، وذهب بدوره إلى القرية يودع أهله.

كأنهم غرباء في هذه الديار، لا أحد لهم فيها، كأنهم اقترفوا جريمة ويبتغون التواري عن الأنظار قبل أن يكشف أمرهم أحد.

عندئذ لم تملك زوجته نفسها فقالت له: حتى الغريب الذي يقيم أسبوعاً واحداً في ركن، يرى مَن يتبادل معه تلويحة كفّ الوداع عندما يترك المكان.

حينما وصل الباص كراج «قامشلو» راوده إحساس أنه خطا خطوة حقيقية نحو الخروج، وأن تلك الديار بكل ما تحمل من عبق الذكريات بدأت تبتعد خطوة إثر خطوة.

عند نزولهم، مضوا على عجل حاملين أمتعتهم صوب المكرو الذي سيقوم بأخذهم إلى بوابة المنفذ.

كان المكرو واقفاً بانتظار أن يمتلئ بالركاب الذين ينزحون من ديارهم صوب الإقليم الكوردي.

بعد صعودهم بقليل، اكتظ بالركاب، واتجه على الفور يشق

الطريق المؤدي إلى «ديركا حمكو».

مع كل لحظة يعتريه شعور بأنه يبتعد عن رائحة المكان الذي أمضى عمره فيه، المكان الذي أحبه وتعلق به، ويتفوّح برائحة ذكريات سنوات الطفولة، واليفاعة، والتكوين، سنوات العمل والكفاح، واكتشاف مشاق وملذات الحياة..

إلى مكان لايعرف فيه شيئاً، مكان يدخله أول مرة، أناساً يلتقيهم للوهلة الأولى، هكذا حتى السفر يأخذ طعم المرارة عندما يرى المرء نفسه مضطراً إليه، عندما يخرج من بيته بحسرة البقاء فيه، وكأن أيادٍ شبحيةٍ تجرجره بالقوة من رائحته.

قبل أن يبلغوا «ديركا حمكو» بقليل، عرج بهم السائق شطر طريق مفروش ببقايا البحص، وما لبث أن استوى يمضي في وسطه بثقة، وهو يتبادل أطراف حديث مع الراكب الذي يجلس إلى جواره.

بدا الطريق وعراً، يمتلئ بالمنحدرات مما أدى إلى خفض السرعة والمضيّ بكثير من التمهل تلافياً مما قد تسببه المنزلقات التي أخذت في الظهور مع بدء هطول مطر كثيف.

بدا الأمر يتَّسِمُ بشيء من السوداوية مع تصاعد كثافة البروق، وقوة أصوات الرعود، وكثافة المطر، فكيف سيحملون أمتعتهم ويقطعون مسافة طويلة سيراً على الأقدام وسط الوحول والمنزلقات في طقس عاصف وماطر كهذا.

بدأت عقارب الساعة تدور لتتعاقب الساعات، والسيارة تجاهد كشيخ عجوز كي تستأنف مسيرها ولا تضطر للوقوف.

بعد نحو ثلاث ساعات، لاحت لهم ملامح موقع قال السائق بأنه المنفذ الذي سينزلوا فيه، وينطلقوا خارجين من آخر خطوات بلادهم.

عندما وصلتْ السيارة، كان ثمة أناس يتجمهرون بانتظار سيارة أخرى تقلهم إلى ما يمكنها الوصول كي يستأنفوا الطريق مشياً.

أشار لهم البعض كي يتجهوا إلى حيث الحجرة التابعة إلى هذا المقر الذي استلمه عناصر من حزب العمال الكوردستاني، يقومون فيه بتنظيم وتيسير شؤون اللاجئين.

قاموا بتسجيل بياناتهم بموجب بطاقاتهم الشخصية وما لديهم من وثائق، ثم ركبوا سيارة مضت بهم حتى أنزلتهم في آخر موقع يمكنها أن تنفذ إليه، حيث تبدأ مرحلة السير على الأقدام بسبب التلال، والمنعطفات، وحقول الألغام.

كان المطر ما يزال يهطل، لكن بأقل مما كان عليه من غزارة، أخبرهم السائق وقد نزلوا أن المطر منع بعض الناس الذين عادة يصطحبون الخيول والحمير لحمل الناس والأمتعة في وعورة الطريق، لكن ليس أمامهم الآن، وقد قطعوا شوطاً طويلاً في رحلة اللجوء سوى أن يتكلوا على الله ويمضوا بعزيمة كأن

الطقس ربيع لأن ذلك سيخفف عنهم مشاق الطريق، ثم حذرهم من الخروج عن المسار الذي يحمل آثار أقدام الناس لأن المكان مليء بحقول الألغام.

قدّموا شكرهم للسائق على نصحه، ومضوا مجموعة في طريق مجهول لايعلموا أين سيودي بهم.

كانوا نحو عشرين شخصاً بين رجال ونساء وأطفال.

أقدم بعض الشبان على مساعدتهم من خلال حمل الحقيبتين، وحملت زوجته الطفل الصغير، في حين أمسك بيد الطفلين ومضوا يشقون بخطواتهم كبد الطريق وسط وحول الأودية، ومنخفضات السهول.

في الطريق لفت نظره شخص في نحو الخمسين من عمره ، محتقن الوجه ، تترنح به خطواته ، وقد بدا منهكاً.

بدأ ينظر إلى الرجل ، ثم ما لبث أن مدّ خطوات نحوه ، عندئذ رأى بأن ثمة فتاة في نحو العشرين من عمرها تصطحبه .

ألقى عليه السلام، فأجاب الرجل بكثير من الود مُرحِّباً بالتعرف إليه، وللتو لمح الدموع تترقرق في عينيه.

بعد قليل من سيرهما معاً لاحظ أن الرجل مدّ يده إلى جيب سترته الداخلي وأخرج زجاجة عرق، جرع منها رشفة، ثم ما لبث أن أعادها إلى موضعها، وأشعل سيجارة جديدة من عقب

سيجارته المنتهية.

بعد نحو نصف ساعة من المشي وهو صامت ويجرع بين حين وحين رشفة من الزجاجة حتى بدت فارغة في يده، حينئذ قذفها جانباً، طلب من ابنته أن تُخرج له زجاجة جديدة، فاستجابت له الابنة وراحت تضع الزجاجة المتوسطة الحجم في كيس أسود اللون، وتدسّها في جيبه.

عندما رأته منسجماً مع أبيها، راحت بدورها تتعرف على زوجته وتبادلها الحديث، وفجأة رأى الدموع تترقرق من عينَي زوجته وهي تتبادل معها الحديث.

اقترب منها مستفسراً، فقالت: تقول بأن أباها كان يعمل سائقاً للتكسي في الشام، وهي تعمل مطرّزة في مصنع للألبسة.

منذ يومين وبينما كانا في عمليهما، سقطت قذيقة على بيتهم الذي يقيمون فيه بالأجرة، وقضت على أمها وأختها وأخيها.

في تلك اللحظات نسي ما آلت إليه حاله، ورأى نفسه يواسي الرجل ويأخذ بخاطره عارضاً عليه أي مساعدة: نحن أهلك يا جنكدار.

شكره الرجل قائلاً: إن شاء الله نحن أهل يا أبا لاوين.

تناهى صوت الفتاة: قال بأن علينا الذهاب إلى كوردستان رغم أن بيروت كانت قريبة منّا، وكذلك الأردن.

قطعنا ذاك المشوار الطويل من دمشق إلى قامشلو وقد عرّضنا أنفسنا للمخاطر بين حواجز الجيش الحر، والجيش النظامي، وحواجز قطاع الطرق، والميليشيات.

قال الرجل: لولا «جين» نور عيني لانتحرتُ ، لا حياة لي بعد زوجتي وأولادي.

ثم انفجر يبكي بحرقة كما لو أنه طفل حتى ابتعد عنه مشفقاً بحاله، ترجّاه أن يرتاح ولا يذكر شيئاً، ثم بدأت الفتاة من جهتها تقبّل يديه متوسلة إليه أن يهدأ.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها رجلاً ينفجر بكاءً بهذا الألم، ولم يملك نفسه من دموع بدأت تنحدر من عينيه.

قالت الفتاة متضرعة وقد نال منها الفزع : من أجل الله ارحم نفسك يا أبي، لم يبق لي غيرك في هذا العالم كله.

جرع الرجل جرعة أخرى فقالت جين: هذا الشراب يجعله ينعس وينام في الليل.

عندما امتدت خطواته الأولى إلى حدود الإقليم، راوده إحساس أن مرحلة حاسمة من مراحل اللجوء قد قضت.

استغرق المسير نحو ساعتين حتى وجدوا أنفسهم وقد أوشكت الشمس على المغيب في عهدة حرّاس حدود الإقليم.

عندها تفرّقوا، وباتت كل عائلة في حالة تدبير من أمرها، كان

هناك بعض الناس قد قدموا لاستقبال البعض، وأخذهم إلى البيوت.

لبثوا وحدهم في خيمة الحرّاس وقد بدا الإنهاك واضحاً على سحناتهم.

تقدموا إليهم بعبارات الاستقبال والترحاب بلغتهم الكوردية المطعمة باللهجة «البادينية».

حملوا الأطفال، وراحوا يُقبّلونهم، ويُداعبونهم، ويُقدّمون لهم بعض السكاكر، ثم دعوهم للجلوس في الخيمة تجنباً للمطر، وكي يتدفئوا وتجفّ ثيابهم المبلولة قليلاً وهم يشرحون لهم بأنّ الوقت تأخر وقد انتهى دوام الموظفين الذين يقومون بإجراءات تسجيلهم، وإعطائهم أرقاماً تخولهم الدخول إلى الإقليم بشكل منظّم.

ثم عادوا يقدمون لهم عبارات الترحاب قائلين بأن عليهم أن يحسبوا أنفسهم

مواطني كوردستان التي هي موطن جميع الكورد، وألّا يخطر لهم لحظة واحدة بأنهم لاجئين، لأن كوردستان كلها عند ذاك سوف تخاصمهم، وهي لا تفرق بين أبنائها الكورد أينما كانوا

وحيثما وجدوا، ولا تقضي تقاليدها أن يكون على ترابها كوردي مواطن، وآخر لاجئ، ولذلك سوف يتم الإسراع في إتمام إجراءات منحهم إقامات نظامية يتمكنوا من خلالها ممارسة تجوالهم في أنحاء الإقليم بشكل طبيعي كما لو أنهم دخلوا بموجب جوازات سفر.

وعندها يمكنهم أن يختاروا السكن في أي مدينة تناسبهم، أو إن شاؤوا يقيموا في مخيم «دوميز» الذي تمّ إعداده لهم.

خفف هذا الترحاب من حجم الإرهاق الذي استبدّ بهم، وبدا كأنه شمعة في هوة سحيقة مظلمة، عند ذاك أجرى أحد الحرّاس اتصالاً مع سيارة، وقال بأن السائق سوف يأخذهم إلى بيته كي يبيتوا الليلة، وعند صباح يوم الغد، سيتّجهون إلى المكتب الذي سيمنحهم ما هو بمثابة تأشيرة دخول نظامية إلى البلاد.

بعد نحو نصف ساعة جاءت السيارة تتقدمها ضوءها، وما إن وقفت بمحاذاة الخيمة حتى نزل السائق الذي يرتدي ثياب «البيشمركة» مرحباً بهم بحفاوة، ومعبراً عن سروره لاستضافتهم في بيته.

صعد السيارة مع زوجته وأطفاله الثلاثة، ولم يدعه الحراس كي يحمل الحقيبتين ليضعهما في صندوق السيارة، بل سارعوا إلى ذلك، ثم ما لبثوا أن لوحوا بأيديهم متمنين لهم ليلة سعيدة، وإقامة ممتعة في ربوع إقليم كوردستان.

في الطريق، بدأ السائق يكرر من ترحابه لهم، ويخبرهم أن كوردستان تتشرف بأن تحتضن أبناءها الكورد سواء في السراء، أو الضراء، لقد حلّوا ضيوفاً أعزّاء بين أهليهم، وعليهم ألاّ يقلقوا لأنهم سيلقون التيسير أينما ولّوا وجوههم. ثم قال بأنه مستعد لتقديم أي خدمة إذا تعسر بهم أمرٌ ما، وعندها ما عليهم سوى الاتصال هاتفياً به، كما أنه مستعد لتأمين عمل له ، إن شاء إستئجار بيت في «دهوك» والإقامة مع عائلته فيه، وإن شاء جلس مستريحاً في مخيم دوميز، حيث سيحصل على خيمة مع فرشها، ومستلزمات المطبخ مع مبلغ مخصص لكل فرد من أفراد عائلته شهرياً.

قبل وصولهم إلى البيت، عرج السائق إلى مكتبة، وطلب إليهم أن يأخذوا صوراً شخصية لهم، ويصوروا ما بحوزتهم من وثائق ومستمسكات تثبت بأنهما زوجين، ونسب الأطفال إليهما.

ثم عاد واستأنف طريقه حتى بلغ البيت.

دعاهم للتفضل وهو يكرر عبارات الترحيب، ثم ما لبث أن نادى زوجته وبناته اللواتي قدمن صوب زوجته وصرن يتبادلن القبلات بحفاوة كأنهن على علاقة قديمة، ثم رحن يقبلن الأطفال،

ويقلن له: الحمد لله على السلامة «ماموستا».

شكرهنّ على لطف الاستقبال، ثم اتجهوا جميعاً إلى حيث غرفة الجلوس.

بعد نحو ساعة من جلوسهم، قدّموا لهم عشاءً مكوناً من لحم دجاج محمّر على طبق من الرز الممزوج بالشعيرية.

بعد ذلك، قدموا الشاي، ثم ما لبث أن دعاه الرجل كي يستريح في غرفة أخرى حيث فراش النوم.

جلس معه الرجل مع ابن شاب له في نحو الخامسة عشرة من عمره، ساهراه وهما يتبادلان أطراف الحديث والنكات والمزاح معه حتى رأيا النعاس بادياً على عينيه، عندئذ ودعاه كي ينام.

استسلم لنوم عميق متواصل دام حتى السادسة صباحاً حين استيقظ على نداء الرجل الذي صبّح عليه بالخير وما لبث أن خرج.

فتح عينيه بعد قضاء الليلة الأولى من هذه الرحلة في بيت هذا الرجل الطيب، تمطط بجسده متأوهاً، ثم ما لبث أن نهض، وخرج متجهاً إلى حيث المغسلة، يغسل وجهه.

بعودته، دعاه الرجل إلى ذات الغرفة التي تناول فيها العشاء ليلة البارحة حيث زوجته وأطفاله مع النساء.

عند دخوله، هرع ابنه الصغير «سيروان» ذو السنوات

الثلاث ملقياً بنفسه في حضنه وكأنه كان غائباً عنه دهراً، ثم ما لبث أن تقدّم «لاوين» ذو السنوات الخمس، وعقبته أخته «بيرهات» ذات السنوات السبع، تجمعوا في حضنه وكأنهم يبحثون عن مشاعر من أمنٍ مفقود.

ألقى السلام على النساء، ثم تبادل ابتسامة مع زوجته التي بدأت حيوية ومتألقة عكس ما كانت عليه البارحة.

أدخلت الفتيات أطباق الطعام ، وشرعوا في تناول طعام الإفطار ، ثم دعاهم الرجل للصعود إلى السيارة كي يأخذهم إلى المقر حتى ينهوا إجراءات دخولهم مبكراً.

في تلك اللحظات رأى الدموع تترقرق في عيون النسوة، وعيني زوجته وهن يتبادلن القبلات الوداعية.

كنّ يوصينها أن تشعر بطمأنينة، ولا تفكر بشيء سوى عنايتها بأطفالها، وفي أيّة لحظة أحسَّتْ بغربة ما عليها غير أن تجري اتصالاً معهن، وسيقدّمن لها كل مساعدة حتى إذا استدعى ذلك الإقامة في مسكن خاص بهم لأن لديهم بيت آخر يمكن أن يقيموا فيه ريثما يرى الله لهم مخرجاً.

في نحو الساعة التاسعة، حضر الموظفون، وقد تجمع حشد كبير من الكورد السوريين طالبين اللجوء.

باشروا في ترتيب الناس بحسب الأولويات التي رأوها، حيث بدأوا بالعائلات التي معها أطفال صغار، ثم الكبار، ثم بالشبان

العزّاب الذين جاؤوا بمفردهم، وقد انشق أغلبهم عن الجيش تفادياً للاشتراك في عمليات القتال، وحتى لا تطالهم أيدي النظام وقد عُدُّوا فارّين من أداء الخدمة الإلزامية.

بعد نحو ساعة تم تسجيلهم، عندئذ طلب منه السائق أن يصعدوا حتى يوصلهم إلى مخيم «دوميز» حتى يستكملوا إجراءات الحصول على الإقامة وعلى مستحقاتهم.

قدّم شكره وامتنانه للرجل قائلاً بأنه سيستقل سيارة أجرة خاصة، ولا يريد أن يثقل عليه أكثر من ذلك.

ثم تقدم نحو بائع لخطوط الهاتف الخلوي، استبدل بعض النقود السورية التي بحوزته إلى عملة الدينار، وابتاع خطاً، ووضعه في جهازه بعدما أخرج الخط السابق الذي كان يحمل الرقم الخلوي الذي لازمه لسنوات طويلة منذ بدايات ظهور الهاتف الخلوي في بلاده، وحفظه عن ظهر قلب، أخرجه من الجهاز وقد تحول إلى شيء من الماضي مع ما تحول في أصقاع تلك البلاد.

عندها كرر عليه الرجل أن يتصل به فور حاجته إلى مساعدة، وهو يعطيه رقم هاتفه.

كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة صباحاً عندما انطلقت بهم سيارة

الأجرة إلى مدينة «دهوك»حيث يقع مخيم «دوميز» من أجل استكمال إجراءات اللجوء.

بدأ المطر ينهمر بغزارة والسيارة تمضي نحو المدينة، حيث هي المرأة الأولى التي يشاهد فيها ملامح مدينة كوردية بامتياز.

مدينة كوردية، ها هم الكورد يقيمون مدينة كوردية بحكم كوردي يتمتع بحكومة وبرلمان، وهم يعيشون في قلب خط النار.

في تلك اللحظات خطر له أن رصيد أي دولة يكمن بشعبها، عندما يتحوّل الشعب كله إلى دولة، وتتحوّل الدولة إلى شعب.

عندئذ تكون دولة قوية قويمة ، عندئذ يكون شعباً قوياًقويماً ، ولعل أكثر مظاهر الخطورة تكمن عندما يعتري الشعب إحساس باللا إنتماء إلى دولته، أو أن هناك مَن أتى وسطا على كيان الدولة وحكرها لنفسه ولعائلته، وجعل عائلته تتميز عن سائر عائلات الشعب، حينها تتراخى مفاصل الدولة، وتبدو على مفاصلها علامات الإنهيار.

إنها مرحلة الانقلابات الكبرى الحاسمة التي رأى فيها الشعب أن يخطو خطوات فدائية جبارة كهذه، وأبدى استعداده لدفع أثمن

ضريبة يمكن له أن يدفعها من أجل أن يقدّم إلى العالم شخصاً استطاع أن يتخلّص من شذرات الدونية، ويمتلك قناعة بأنه موظف في ولايته المؤقتة، وليس لديه استعداد كي يمضي كل عمره موظفاً، لأن في الحياة مجالات أخرى لا يمكن للإنسان أن يكتشفها ويستمتع بمزاياها إلاّ عندما يخوض غمارها.

إنه يسلّم مقاليد الحكم لخلفه كما لو أنه يسلّمه مفاتيح بيت أقام فيه حيناً بالأجرة، وقد أبرأ ذمته تجاه هذا البيت وسلّمه إياه بشكل أفضل مما كان عليه عندما إستلمه، وجعله مسؤولاً عن الحقبة القادمة.

ها هو الحاكم يتحوّل إلى أعظم عبء على شعبه، ويلحق به أقسى الكوارث المريعة، ويفعل أي شيء كي يتشبث بالكرسي بيده وبأسنانه، ومستعد حتى يخلع ثيابه ويبقى عارياً بشرط أن يبقى جالساً على الكرسي، ولا يرى غيره وقد جلس على كرسيه، لأنه لا يتخيل بأنه سيحتمل ذاك الموقف المهين بالنسبة إليه، وكلمات أمه تبقى توبخه مدى العمر قائلة له: «ابكِ مثل النساء مُلكاً لم تستطع أن تحافظ عليه مثل الرجال ».

بات هذا الحاكم يشعر بحالة عدائية مع الناس، فيبدأ بشن حرب نفسية تطال وضعهم النفسي والمعيشي، وتسبب لهم القلق وعوامل التوتر والإضطراب كي ينشغلوا بما آل إليه وضعهم ويتركوه جالساً على الكُرسي، وعندما يموت، يورّث هذا الميراث لابنه كي لا يجلس عليه شخص غريب.

بدت «دهوك» متلألئة بالجبال التي تزدان بها، بالكتابات الكوردية التي يشهدها أول مرة على واجهات المؤسسات، والمحال، والطرقات.

عندما دخل المخيم، هالَهُ ما رأى من أفواج الناس، ومساحات الأراضي التي تشغلها الخيم، الباعة الذين بسطوا حاجات لبيعها، سيارات الأجرة، حركة الذهاب والإياب الكثيفة، أطفال، نسوة، عجائز، شبان، سيارات منظمات دولية، موظفوا هيئات إنسانية، والمطر يزداد كثافة، يحيل الأرض الترابية إلى منحدرات لزجة من الوحول.

كل هؤلاء نزحوا بأطفالهم تحت هول رعونة الحرب، ولذلك استطاع أن يميز أعداد الأطفال بكثافة إلى جانب أعداد الناس، وفي لحظة قارن نفسه وهو ينظر إلى أطفاله الثلاثة، وإلى زوجته ، بيد أن الأمر يختلف حيناً عندما يرى رجلاً معه أربعة أطفال، وزوجة، وثلاث بنات صبايا، وأم وأب عجوزين.

عندئذ تخيّل حجم المأساة في كل المخيمات التي ضمت الأسر

السورية سواء في الأردن، أو في تركيا، أو في لبنان.

هؤلاء الذين تركوا بيوتهم وأصبحوا بين ليلة وضحاها لاجئين، وقد اعتادوا خلال سنوات طويلة أن يستضيفوا اللاجئين من مختلف أنحاء العالم، من مختلف مواقعهم، ويستقبلوا الناس سواحاً وضيوفاً ويفتحوا لهم بيوتهم.

أمسكا بأيدي الأطفال ومضوا تحت كثافة زخّات المطر إلى حيث مقرٍّ تمَّ إرشادهم إليه.

إنه طريق رأوا أنفسهم مجبرين للمضيِّ فيه شأنهم شأن ملايين السوريين الذين أصاب الزلزال مسكنهم الآمن.

باتت كلمة «سورية» تسبب غصة في حنجرته، سورية الجريحة التي تتلقى الطعنات من كل حدب وصوب.

سورية التي يأتيها العالم من بقاع العالم، لم تعد تتسع لأبنائها، حتى الفلسطينيين الذين أقاموا فيها منذ سبعين سنة، اضطروا لمغادرتها، حتى العراقيين الذين وجدوا دفئاً وأمناً وجمالاً في حضنها، اضطروا لتركها، لم يعد يأتيها السواح، لم يعد يأتيها العشاق، توشحت زهور الياسمين بوشاح الحداد، بلاد الشام، بلاد الحب، كل المدن تئِنّ تحت أزيز المدافع: دمشق ، السويداء، قنيطرة ، درعا ، حلب ، حمص، حماة ، اللاذقية، طرطوس، الرقة، دير الزور،

الحسكة .

بقيتْ وحيدةً تنزفُ، وتنزفُ، وتنزفُ، والآخرون يضحكونَ، ويضحكونَ، ويضحكونَ.

يمضي والدموع تغالب عينيه، والغصة تستقر في حنجرته، هناك تم تصويرهم بأجهزة تصوير معدة لذلك من قبل الموظف، وتم أخذ معلومات منه، ثم انتظروا في الساحة حتى ظهر أحد الموظفين وغدا ينادي بالأسماء، ويسلم صاحب كل إسم وثيقة الـ«فورمة» (شهادة منح صفة طالب لجوء)، التي تحتوي على صورهم ومعلوماتهم.

عندما نادى الموظف باسمه، لم يرد، وعندما كرر ذلك، نادت زوجته، وراحت تتناول الوثيقة، عندها لاحظت أن الغصة منعته من الكلام.

بعودتها، ألقى إليها نظرة، ثم أزاح نظره عنها وهو يتناول هذه الوثيقة من يد زوجته شاعراً برغبة جامحة لتمزيقها، ثم وقعت عيناه على عباراتها المكتوبة بالكردية، والإنجليزية، والعربية، وشرع يقرأ:

«يشهد مكتب المفوضية السامية للأمم المتحدة بأن الأشخاص المذكورين هم طالبو لجوء، ويقوم المكتب حالياً بدراسة وضعهم، وبصفتهم طالبو لجوء، فإنهم يعتبرون من الأشخاص المشمولين برعاية مكتب المفوضية، ويتوجب بشكل خاص حمايتهم من العودة القسرية إلى بلدانهم حيث يدعون أنهم يواجهون تهديداً

لحياتهم، أو لحريتهم إلى أن يتم اتخاذ قرار نهائي بشأن طلب الحصول على صفة اللجوء».

بعد ذلك، طلب إليهم أن يتجهوا إلى مقرٍّ مجاورٍ كي يتم تحليل دمهما لدواعٍ صحية، حيث يتم تحليل دماء البالغين، ويُستثنى من ذلك الأطفال.

مضوا حيث يمضي الماضون نحو الساحة التي يجتمع فيها حشد من الناس، عند ذاك أحسّ بأنه يمشي حافياً.

ألقى نظرة إلى قدميه، فوجد الحذاء، ثم نظر إلى أسفل القدم، فوجد بأن الأرضية قد علقت في الوحول في مكان ما.

أكمل المسير حتى رأى بسطة عليها أحذية يبدو أن صاحبها بات على خبرة بطلبات الزبائن فجلب أحذية بلاستيكية سميكة كمثل تلك الأحذية التي يرتديها الفلاحون وهم يسقون الزرع.

عندما بلغوا المكان رأوا مجموعة من الناس تنتظر في طابور طويل، تقدم إلى حيث الباب الذي يستقبل القادمين، عندئذ تم نصحه من قبل الموظف الذي يقوم بتسجيل الأسماء أن يسجل على دور، ثم يعود في صبيحة يوم الغد، لأن الدوام على وشك الإنتهاء، والأسماء التي تنتظر منذ يوم البارحة كثيرة.

قام بتسجيل اسمه في جدول الأسماء، وعادوا حاملين أمتعتهم صوب مدخل المخيم حيث تجتمع سيارات الأجرة.

في لحظة تخيل بأن المخيم الكبير تحوّل إلى موطن للكورد في العراء، حيث انهالوا عليه من كل أرجاء الجناح الغربي.

بدأ يلتقي بمعارف له لم يكن يلتقيهم في مدينته، تحوّل شتات المخيم إلى ملتقى كبير لأصحاب همٍّ واحد، يكاد يرى كل شيء مما يمكن للمرء أن يحتاجه، أصبح الناس في واقع فرض عليهم القيام بأي عمل كي يحسّنوا في وضعهم المعيشي، ومَن لم يستطع استئجار بيت في المدينة، يقيم في المخيم على أمل تركه عندما يستقر في عمل ثابت، لذلك يقيمون في المخيم ليلاً، وفي النهار يذهبون إلى أعمالهم.

عندما رأى علامات الإرهاق بادية على الأطفال، جنح إلى خيمة، واستأذن بالدخول.

خرجت امرأة في بداية عمرها من الخيمة، ورحبت بهم قائلة: تفضلوا، أهلاً وسهلاً.

قال: سنرتاح قليلاً، ونكمل مشوارنا.

كررت مرحّبة، وقد تقدمت من زوجته، وغدت تتبادل معها قبلات حميمية، ثم راحت تقبل الأطفال.

دخلوا الخيمة، وعلى الفور قدمت لهم المرأة ماءً، ثم أعطت لكل طفل كيساً من البطاطا المجففة، وراحت تضع إبريق الشاي على الغاز قائلة بأنها من «قامشلو» مضت سنة على حضورها مع زوجها إلى هذا المكان، وقد وضعت في هذه الخيمة طفلتها

الأولى «إيفار» التي هي في شهرها العاشر.

أخذ زوجها هذه الخيمة لأنه لا يملك قيمة استئجار بيت بسبب إرتفاع الأسعار بشكل غريب، حيث لا يتجاوز دخله خمسمائة دولار، في حين أن أجرة بيت دون فرش لشهر واحد يقضي على هذا الدخل دون ترك شيء للمعيشة، الأمر الذي جعل زوجها يتخذ قرار الإقامة في المخيم، وحتى لا يبقى مستلقياً على ظهره في البيت ومنتظراً معونات المنظمات الخيرية ، يعمل حتى يتحسن وضعه بعض الشيء، أو يرتفع أجره ليستطيع حينها ترك المخيم، والإقامة في بيت أجرة، حيث يعمل معلماً في البناء، ويمكن أن يعثر على فرصة عمل أفضل مع الأيام إن طال بهم المقام هنا ولبثت الحرب مشتعلة في البلاد، هذه الحرب التي تتسم بطابع الشبحية والغموض، و لا يكاد أحد يستوعب منها شيئاً واضحاً، وكل ما ينتج عنها هو ضبابي مبهم .

تنفست المرأة البالغة من العمر ثلاثة وعشرين سنة الصعداء، ثم نهضت تحضر إبريق الشاي.

قال: والله اشتقنا للشاي السوري.

قالت: الشاي هنا أغلبه معطّر، لكن مع الأيام اعتدناه كما عودنا أنفسنا على أمور كثيرة.

سكبت ملاعق السكر في قعر كاسات صغيرة، ثم بدا دخان الشاي يتصاعد ويملأ الخيمة عطراً، وهي تسكبه في الكاسات،

وتقدمه لضيوفها مكملة حديثها بأن زوجها «سامان» البالغ من العمر ثلاثين سنة: يطلع مع طلوع الشمس من الخيمة، ويرجع عند غروبها.

قالت: المعيشة في المخيم صعبة للغاية، لكنها أفضل من العيش تحت رحمة قصف البيوت، والانفجارات التي تقع في الشوارع، وعمليات خطف الناس.

لا تعقدوا أملاً على أحد هنا، الذي لا يعتمد على نفسه سوف يتسوّل، لأن ما يعطوننا هنا لا يسمن، ولا يغني عن جوع.

في الخيمة المجاورة مات ابن جارتي وكان عمره خمس سنوات، وهو بين يديها، كانت الساعة نحو الثانية ليلاً عندما لدغه عقرب، وولْوَلتْ المسكينة حتى تجمهرنا حولها ثم أعطوه حقنة مسكّنة، في الصباح أعطاها أحدهم رقم هاتف مسؤول في أحد الأحزاب الكوردية السورية هنا، فاتصلت به كي يساعدها حتى تعالج ابنها كونه على علاقة بالمسؤولين هنا، فرحب بها بحرارة وطلب منها أن تتصل به بعد ساعة.

فرحت المسكينة، وراحت تتصل به بعد ساعة، لكنها فوجئت أن هاتفه لا يرد، وبقيت تعاود الاتصال حتى بلغت الساعة الرابعة مساء، ولم يرد، حينها اتصلت به من رقم هاتف آخر، وعندما سمعت صوته، لم تقل كلمة واحدة، بصقت عليه وأغلقت الخط.

حملت الطفل وقد زادت حالته سوءاً، لكنه فارق الحياة قبل أن

توصله إلى عيادة طبيب خاص بعد أن تبرع سائق تكسي من دهوك لعلاجه على نفقته، وأخذه بسيارته عندما علم بأمره.

بعد نحو ساعة استأْذَنَا المرأةَ للخروج، وقد استراحا في خيمتها، كررتْ عليهم كي يمضوا الليلة في خيمتها، وسوف يفرح سامان عندما يعود لأنه رجل مُحِبٌّ للضيوف.

لكنه شكرها، وطلب إليها أن تبلغه سلامه، وسوف يقضوا الليلة في أحد الفنادق، ويعودوا في الصباح.

عندها ودعت المرأة زوجته بالقبلات، وراحت زوجته تقبل ابنتها، ثم أردفوا المسير نحو مدخل المخيم، واستقلوا سيارة كي تأخذهم إلى المدينة.

في الطريق طلب من السائق أن يأخذهم إلى فندق كي يبيتوا الليلة فيه، لكن السائق قال بأنه سيستقبلهم للنوم في بيته بدلاً عن الفندق، فهم ضيوف وعليه ألاّ يحرمه من قيامه بواجبه نحوهم، كما أن زوجته وأولاده سيفرحون كثيراً بالتعرف عليهم وقضاء ليلة جميلة معاً، ثم علّق قائلاً: مَن يعلم، قد نحل بعد حين ضيوفاً عليكم.

عندها اضطر للموافقة، فعرج بهم إلى بيته وهو يكرر بابتسامة طفيفة: أهلاً وسهلاً بكم ضيوفاً أعزاء.

في صبيحة اليوم التالي، جلبهم ذات السائق بسيارته إلى حيث حملهم يوم البارحة، اتجهوا على الفور إلى موضع التحليل، كان

ثمة أناس قد بدأوا بالتجمهر، وثمة أشخاص يدخلون، ويخرجون.

انضموا إلى الحشد بانتظار الدخول حين ينادي الموظف بلسمه.

عندما بلغت الساعة الثانية عشر، هتف القارئ باسمه، عندئذ فتح لهما الناس الطريق كي يدخلا، اتجه كل واحد إلى ممرضة داخل الحجرة، وعلى الفور قامتا بسحب عينة دم من ساعديهما.

بعدئذ تم تحويلهما إلى مقر آخر من أجل الحصول على المهر الأخير للحصول على الإقامات.

مضوا نحو المقر الذي بدا مكتظاً بجمهرة من اللاجئين، ولبثوا منتظرين حتى بلغت الساعة الثالثة عصراً، عندها قرأ الموظف إسمه وقال بأن عليه الذهاب صباح يوم الغد إلى دائرة شؤون اللاجئين في مدينة دهوك حيث ستكون إضبارته بانتظاره هناك.

حملوا أمتعتهم، وقادوا أطفالهم، وقد نال منهم الإنهاك جراء الإنتظار الطويل والوقوف على الأقدام ، واتجهوا إلى حيث مدخل المخيم للذهاب إلى المدينة، والمبيت في أحد فنادقها حتى صباح يوم الغد.

في تلك اللحظات ترامى صوت ينادي باسمه، انتبهت زوجته أيضاً إلى الصوت، ونبهته ابنته بأن شخصاً ما ينادي به.

التفت، وإذ بصديق قديم طبيب مع زوجته وابنه، تقدموا إليه،

صافح صديقه بحرارة وتبادل معه القبلات قائلاً: أهلاً صديقي سليفان.. مَن كان يصدّق بأننا سنلتقي هنا؟!!

ثم كما تبادلت الزوجتان القبلات بدورهما.

عندئذ أخبره صديقه بأنه مقيم في مدينة دهوك منذ نحو شهر، لكنه تكاسل في التقدم للإقامة حتى وجد بيتاً، والآن جاء ليبدأ في إجراءات ذلك، بيد أن الوقت تأخر ولم يستطع أن ينجز إلاّ القليل على أن يعود غداً ليستكمل ما بقي من مستلزمات.

ثم قال بأنه إذا رأى نفسه مندفعاً للعمل، سيفتح عيادة يمارس فيها مهنته رغم أنه يراها فرصة كي يستمتع مع عائلته بالفراغ، والتفرغ للقراءة ريثما تهدأ الأمور ويعود إلى بيته.

قال: أراها يا صديقي فرصتي الوحيدة كي أحقق حلمي في التفرّغ للقراءة.

قال: ياه، ألم تنس ذلك، أذكر بأنني سمعت منك هذه الأمنية منذ نحوعشرسنوات في العيادة، حينها رأيتني في الطريق، وأصررت أن تأخذني بسيارتك إلى العيادة، أتذكر ؟

قال: أذكر، وبعدها لم تزرني سوى مرة واحدة.

قال: أجل صديقي، قلت لي يومها بأنك تريد أن تتقاعد مبكراً، وتمضي كل وقتك في القراءة والعلاقات الاجتماعية والسفر في أنحاء العالم.

قال: تصوّر أحياناً كنت أعاين خمسين مريضاً في اليوم الواحد إضافة إلى إجراء العمليات الطارئة في المشافي الخاصة.

قال: أذكر، لعلي رأيت أربع ممرضات تعملن في عيادتك.

قال: كنتُ أعمل يا أبا لاوين من التاسعة صباحاً، وحتى التاسعة ليلاً.

لقد خرجتْ زمام الأمور من يدي، صرتُ أمام واقع إنساني لم يعد التردد فيه مقبولاً بأي شكل.

قال: الشهرة هي التي تسهم في ذلك، أنت اليوم من مشاهير الأطباء الجرّاحين في المدينة.

قال: خسارتنا ياصديقي فادحة، هل تعلم ماذا يعني نزوح نحو ثلاثة ملايين مواطن من البلاد، دمار أحياء سكنية بأكملها، لا أعرف كم سنحتاج من الوقت حتى نعود إلى الوراء ويتسامح بعضنا مع بعض، يبني بعضنا مساكن بعض، يواسي بعضنا بمصائب البعض.

ثم قال بحسرة: فكرت أن نذهب إلى الولايات المتحدة، أو إلى أي دولة أوربية، كما فعل غالبية زملائي، لكنني في اللحظة الأخيرة رأيت بأن وجودي في كوردستان سيخفف علي من أثر النزوح، وهي المرة الأولى التي أرى فيها الإقليم، لا أخفيك بأنني شعرت بفرحٍ لما آل إليه المآل هنا، لكنني لا أخفيك أيضاً بعض ما اعتراني من قلق من المستقبل لأن الظروف شاءت أن تكون

كوردستان في أكثر بقاع العالم تركيباً وتعقيداً وتلغيماً وتداخلاً، كأننا نعيش في بقعة لا أحد يعلم متى ستنفجر، وما الذي سيخلفه هذا الإنفجار . صمت قليلاً ، ثم بلع ريقه وأردف : في اعتقادي أن الأمر يحتاج إلى إمكانات إستثنائية، وأحياناً أكثر من استثنائية.

ثم أصرَّ عليه أن يصطحبه إلى البيت لقضاء الليلة، وأصرّت المرأة أيضاً على زوجته، فاضطر للموافقة رغم أنه كان قد خطط لقضاء سهرة غنية في أحد مقاصف دهوك من أجل أن يودعها، لأنه أحس بحاجة شديدة إلى تغيير كهذا بعد أن يأخذوا قسطاً جيداً من الراحة في الفندق.

مضوا معاً حتى بلغوا سيارته الواقفة بجانب مدخل المخيم ، حينها قال: المكان قد لا يتسع، سنمضي خلفك بسيارة أجرة.

قال: لا لا يا صديقي، دبّر حالك مع برهام في المقعد الأمامي ـ مشيراً لابنه البالغ من العمر نحو اثني عشر سنة ـ وستتدبر الأميرتان الأمر في المقعد الخلفي .

كرر شكره وامتنانه صاعداً، واتجهوا إلى أحد الأحياء حيث الشقة المفروشة التي استأجرها صديقه، بدت الشقة جميلة وواسعة، لذلك لم يشعر بأنه سيسبب ضيقاً لصديقه، فهي تتألف من أربع غرف وصالون واسع.

في المساء صارح صديقه بأنه كان ناوياً أن يودع دهوك بالسهر في أحد مرابعها، وقد حصل ما حصل، ولذلك يدعوه مع

عائلته لمشاركتهم السهر.

ثم أكد ذلك قائلاً بصيغة مزاح: إن رفضت عزيمتي يا صديقي، سأرفض دعوتك للبقاء هنا.

عندئذ أبدى موافقته، وخرجا في نحو العاشرة ليلاً إلى أحد المقاصف الجميلة.

قال صديقه وهم يجلسون على مائدة العشاء: صارت الحياة جحيماً في البلاد، تصور أن كل طبيب، أوصيدلاني، أو محام، أو تاجر، أو صائغ، بات يستعين بمرافق أو مرافقَين لحمايته.

كنا نمشي في الشارع، ونترقب أي يد تمتد لتختطفنا، ثم تطلب فدية تقضي على كل ما ادخرناه لمستقبل أطفالنا.

كلما كان جرس هاتفي يرن، كنتُ أتوقع أن أحداً ما سيقول بأنه خطف ابني ويريد فدية.

ثم ابتسم قائلاً: أحد زملاءنا قال لي قبل أن آتي بأيام: أتعرف أنني صرتُ أضطرب عندما يدخل أي مريض غرفة المعاينة، أتوقع بأنه سيشهر مسدساً ويقودني إلى حيث يشاء، أحياناً أفكر أن يقوم المرافق الذي استأجرته لقاء راتب شهري لحمايتي أن يقوم بتفتيش كل مريض قبل أن تدخله الممرضة غرفة المعاينة.

عندما شارفت الساعة على الواحدة ليلاً، راوده إحساس بالامتلاء والاكتفاء، وبدا منتشياً ومستمتعاً بوقت جميل أمضاه

على ضفة هذه الغربة.

عادوا إلى البيت، عندئذ بدأت زوجته تعين المرأة في فرش الغرفة التي سينامون فيها.

بعد قليل نام الأطفال، فانسحب إلى فراش زوجته يداعبها، تنَحَّت هامسة: يا رجل نحن في بيت أناس غرباء.

قال: لاغرباء ولا أقرباء، حيثما ننام، فهو بيتنا.

عندما رأته مصرّاً وهي تَخبَرُ عنادَه، رضختْ لنزوته تلك متمتمة كما ألفت: أمري لله، ذنبي برقبتك لأنني لن أصلي الفجر.

عند الصباح، نهضوا باكراً، شكر صديقه على الإستضافة، وتبادلا أرقام الهواتف، ثم أوصلهم إلى حيث الدائرة، واتجه إلى المخيم لاستكمال ما بقي من إجراءات .

عندما بلغت الساعة التاسعة كانوا يقفون أمام باب الدائرة، وبعد قليل دخل الموظفون، وبدأوا في إدخالهم، حيث تم التقاط صور جديدة لكل فرد منهم، وأخذ بعض المعلومات اللازمة، ثم قيل لهم بأن عليهم الانتظار في ساحة المبنى حيث سيتم توزيع بطاقات الإقامة أولاً بأول.

*　　*　　*

أوهاج الخروج من واقع، والتغلغل في صميم واقع آخر، هنا تفوح روائح الأجداد، هنا الموطن الأزلي الذي تشكّلت وترعرعت في جنباته الذاكرة الكوردية.

منذ أن وطأت قدماه تربة كوردستان، لايدري لماذا اجتاحه إحساس بأنه إن لم يرَ هولير، كأنه ما وطأ كوردستان، لا يدري لماذا انتابه شعور بجاذبية سحريةٍ نحوها، وبدت في تلك اللحظات كما لو أنها تناديه بصوتها الشجي من بعيد.

لذلك عندما سألته زوجته وهي تشاركه متعة إلقاء النظرات الأولى على الإقامات فور تناولها من يد الموظف: أين سنقيم ؟

في هولير.. خرج الكلام من فمه عفوياً.

في هولير . شدّدت زوجته على اللفظ.

هز رأسه علامة بالإيجاب، ثم ما لبث أن أشار إلى سيارة أجرة، وسأل السائق عن كيفية الذهاب إلى هولير.

قال له السائق بأن عليه الذهاب إلى الكراج حيث سيجد

سيارات التكسي التي تقِلُّ كل راكب بخمسة عشر ألف دينار، وإن شاء يجد المكرو بسعر أقل.

عندئذ سأله إن كان بإمكانه أخذهم إلى هولير ؟

أبدى موافقته على ذلك، ودعاهم للصعود.

جلس في المقعد الأمامي بجانب السائق، بينما جلست زوجته مع الأولاد في المقعد الخلفي، وما لبثت السيارة أن شرعت في المسير متجهة بهم إلى شطر عاصمة الإقليم.

سأله عن الوقت الذي سيستغرق في الوصول، فقال: المسافة تبلغ نحو ١٦٠ كم، نحتاج فيها إلى ساعتين ونصف.

عندئذ سأله إن كان من اليُسرِ الحصول على بيت أجرة؟

قال بأنه من سكان دهوك، ويأتي إلى هولير مصادفة بطلبيات خاصة، لكن بشكل عام هناك أزمة بيوت في كل الإقليم بسبب توافد الناس عليه من مدن العراق بحثاً عن الأمن، الأمر الذي تسبب في ارتفاع باهظ في أسعار البيوت شراءً، أو إيجاراً، ثم ابتسم يقول: أتعرف بأن سعر أجرة البيت في الإقليم يتجاوز سعر أجرة البيت في أوربا.

ثم استأنف يقول وقد استأذن لتدخين سيجارة: أيضاً نزوح أخواننا الكورد في الفترة الأخيرة من روش آفا ، سورية أسهم في ارتفاع الأسعار، لأنهم أقاموا في المدن بسبب طبيعة أعمالهم، واضطروا لاستئجار البيوت.

توجد أزمة سكن لدينا خلال هذه المرحلة، لذلك تُقام مشاريع إقامة الضواحي السكنية بكثرة في جميع أنحاء كوردستان.

الأمان في الإقليم بدأ يستقطب كبار رجال الأعمال في العالم كي يستثمروا فيها ، لذلك كثرت المظاهر السياحية عندنا ، وتضاعفت أعداد

الفنادق .

بعد قليل من الصمت أردف الرجل يقول: لكن على الأغلب ستجد بيتاً في هولير لأن لديك عائلة، مكاتب العقارات تمتنع هنا عن تأجير البيوت خاصة في الأحياء السكنية الشعبية للعزّاب من أينما كانوا، لأن العازب الذي سيشغر بيتاً، سيحرم عائلة كاملة من السكن فيها، وهو بمقدوره أن ينام في مقر عمله، أو أي إقامة يوفرها له صاحب العمل.

بدأت هولير تتفتح أمام ناظرَيه كوردة، وهي تفصح عن لمسات جماليتها البدائية، والسيارة تمضي بشيء من التمهل في محراب مداخل حدودها، يتأمل طبيعتها الخلاّبة وقد فرشت شمس العصر خيوطها على رحابة الأرض بألق.

عندما تمهلت السيارة حتى وقفت خلف رتل من السيارات الداخلة إلى المدينة، قال السائق: هذه هي «السيطرة» الرئيسية، وسندخل قلب المدينة.

بعد قليل وصلت السيارة إلى بوّابة الحراس، ألقوا نظرات إلى

إقاماتهم، ورحّبوا بهم قائلين: «فرمو».. تفضلوا بالدخول.

لم يكن يعلم أن هولير تتمتع بكل هذه الجاذبية، وهو يطوف بعينيه معالمها من خلف زجاج السيارة، هولير، وقد أوشك المساء أن يحط في بوعها.

إنها متعة دخول مدينة جديدة، ورؤية لمساتها المعمارية، واستنشاق نسيمها، النظر في وجوه سكانها أول مرة.

توقف السائق في شارع وقال بأنه مركز لمكاتب عقارية إن شاء أن ينزلوا فيه، أو في أي مكان آخر يريد.

شكره على ذلك، وقال بأنهم سينزلون هنا لعله يجد بيتاً، ويتجهوا إليه على الفور.

سارع الرجل بفتح الغطاء الخلفي لباب السيارة، وأنزل الحقيبتين، ثم قال بأنه سيسارع في العودة قبل أن يتأخر الوقت.

قال له: هل ستعود دون ركاب ؟

قال: سأمرُّ قليلاً بكراج الشمال في طيراوة ، إذا رأيتُ ركاباً، سأحملهم وأنطلق، وإن لم أجد، سأكمل الطريق دون ركاب.

قالها وصعد السيارة، عندئذ تذكر بأنه لم يعطه الأجر، ففتح الباب على عجل قائلاً: على مهلك يارجل.

دُهش السائق من ذلك وقال: هل غيرت رأيك وتريد أن أوصلك إلى مكان آخر؟!

قال: لا، لكن لم أعطك الأجرة.

ضحك وهو يهز رأسه: هذه سفرة مجانية من أخ إلى عائلة أخيه.

أبقى ممسكاً الباب دون أن يفسح له مجالاً للمضيء قائلاً: لن أدعك تتحرك إن لم تأخذ أجرتك.

قال: اسمع مني ولاتكن عنيداً، هذا المبلغ الذي لا يعني لي الكثير، قد يعني لك الكثير، ويُخرج عائلتك من مأزق في موقف ربما يواجهكم.

قال: رغم ذلك، أنا مصر أن أدفعه لك.

ثم مد يده إلى حقيبته، فاكتشف بقاء ورقتين فقط بعملة الدينار معه، واحدة حمراء اللون بفئة خمسة وعشرين ألفاً، والثانية زرقاء بفئة خمسة آلاف.

عندها أخرج ورقة بفئة المائة دولار وأنقدها للرجل شاكراً إياه.

تناولها الرجل مكرهاً وهو يتمتم: أمرك عزيزي، ثم أخرج ورقة بفئة الخمسين دولار، وأعادها إليه.

وقف نحو خمس دقائق، ثم مضى قليلاً صوب أقرب دكان، طلب أن يضع الحقيبتين على رصيفه ريثما يعود، فوافق الرجل مرحّباً بذلك.

اتجه إلى أول مكتب عقاري في رتل المكاتب العقارية الطويل، سأل عن بيت، فاعتذر له الرجل عن عدم وجود بيتٍ للإيجار لديه حالياً.

دخل المكتب الذي يليه، فسمع ذات الإجابة، ثم بدأ يدخل إلى مكتب، ويخرج منه ليتجه إلى الآخر، وكأن مكاتب المدينة العقارية كلها اجتمعت في هذا الركن.

يدخل مكتباً، يلقي السلام على صاحبه: هل يوجد لديك بيت للأجرة ؟

يهز الرجل رأسه علامة بالنفي متأسفاً.

بعد أن دلف نحو عشرين مكتباً عقارياً ، قال له صاحب أحد المكاتب بأن لديه بيتاً ، لكن في ضاحية بعيدة.

قالت له زوجته وقد نال منها الإنهاك نتيجة المشي : سنقيم في هذا البيت فترة مؤقتة ريثما تجد لنا بيتاً في المدينة على مهل.

لكنه أصر على السكن في المدينة، وأكمل المسير سائلاً ، وجد بعض البيوت، بيد أن أسعارها المرتفعة أذهلته بشكل لم يكن يتوقعه البتة، ففي دمشق كان عندما يريد قضاء شهر في إجازة مع عائلته، كان يستأجر بيتاً مفروشاً بما لايتجاوز مائتي دولار، في حين أن البيت المتواضع غير مفروش هنا يكون بخمسمائة

دولار شهرياً، والمفروش يقترب من ألف دولار، ولفتت انتباهه ظاهرة الفنادق – الموتيلات - التي تؤجر شققاً مفروشة، لكنه استقر على فكرة استئجار بيت في حي شعبي في المدينة ويقوم بفرشه لأن الوقت الذي سيمضيه قد يطول.

من جهتها شجعته زوجته على الفكرة قائلة: بقيمة شهرين للشقة المفروشة، نشتري مستلزمات بيت كامل ونضعها في بيت غير مفروش.

عندما خيّم الليل، وبدأت المكاتب تغلق أبوابها، وبدأت الحركة تخف من

الشارع، لم يبق أمامه سوى أن يتجه إلى فندق لقضاء الليلة فيه، وفي الصباح يخرج للبحث عن بيت في مكان آخر.

بعودته إلى الدكان الذي ترك لديه الحقيبتين، سأل صاحبه عن فندق؟

قال الرجل بما أن معه عائلة ، فينصحه بالموتيل بدلاً عن

الأوتيل ، لأن الأ ول يؤجر شققاً مفروشة ، بينما الثاني يختص باسنئجار الغرف المفردة .

ثم أشار إلى موتيل قريب ،عندئذ اتجهوا مشياً صوبه وقد بدا لهم على مسافة خمسمائة خطوة.

عندما دخلوا الشقة الصغيرة المؤلفة من غرفة ومنافع ، لم يمض بهم الوقت طويلاً حتى استسلموا جميعاً لنوم عميق طال بهم حتى الثامنة صباحاً، حملوا أغراضهم ونزلوا إلى مطعم قريب تناولوا فيه طعام الإفطار، ثم أشار إلى سيارة قائلاً للسائق بأنه يريد أن يأخذهم إلى مكتب عقاري يمكن أن يجدوا لديه بيتاً.

نصحهم السائق بأن يتجهوا إلى مكاتب الأحياء الشعبية لأن فرص العثور على بيت لديها تتوفر عادة أكثر من غيرها، كذلك يمكن لهم أن يجدوا بيتاً بسعر مناسب في حي شعبي، وذلك أفضل لهم من السكن في شقة ضمن مجمع سكني غير شعبي لايعرف فيه الجار جاره.

استحسنت آفان الفكرة، وهي تحضه إلى ذلك، فوافق على رأي السائق.

عندئذ اتجه بهم الرجل إلى حيٍّ «الإسكان»، وبدأ يسأل لهم بعض الأهالي، وبعض أصحاب البيوت، وما يرى من مكاتب عقارية، دون أن يجدوا بيتاً.

أمضى الرجل نحو ساعتين وهو يبحث دون جدوى، عندئذ

طلب أن يعيدهم إلى «البازار».

قالت له زوجته بشيء من اليأس: ماذا سنفعل ؟

قال: الاحتمال الأسوأ هو أن نعود إلى الموتيل .

عندما أشارت الساعة إلى الثالثة، اشترى صموناً ساخناً، وعلبة من اللحم البقري، وعبوة كولا، وجلسوا في حديقة يتناولوا الصندويش.

حين فرغوا من ذلك، ونالوا قسطاً جيداً من الراحة، أوقف سيارة أجرة وطلب من السائق أن يأخذه إلى بعض الأحياء الشعبية من أجل استئجار بيت.

رحّب به السائق، وانطلق بهم إلى أحد الأحياء، دخل ثلاثة مكاتب دون أن يجد مراده.

طلب إليه أن يأخذهم إلى حي آخر، فاستجاب الرجل بسرور، وهو يقول: سآخذكم إلى حي «سيتاقان» ربما نجد بيتاً هناك.

قال: ما يهمني هو أن يكون قريباً من مركز المدينة «البازار»

قال الرجل وهو يتجه بالسيارة نحو الحي: كاكا، يمكنك أن تذهب مشياً إلى «البازار» بنحو نصف ساعة.

قال: جيد عزيزي.

عند دخوله الحيّ، بدأ يسأل حتى وقع على مكتب عقاري رأى مطلبه لديه.

أعطى السائق أجرته، وهو يشكره على جهوده التي أثمرت بنتيجة.

قال صاحب المكتب: يوجد لدي بيت في هذا الحي أظنه يناسبك.

أشار لزوجته بالدخول، فأتت مع الأطفال، وجلسوا جميعاً في المكتب.

قال الرجل: كاكا، لايجوز أن تسكنوا البيت قبل تصديق العقد من «الأساويش» المخفر، لكن بما أنك مضطر، لا بأس سأسكنك فيه على مسؤوليتي، وخلال أسبوع عليك أن تذهب إلى الجماعة وتصدق العقد.

أبدى موافقته على ذلك، فقال الرجل: صاحب البيت يريد ستة أشهر مقدماً ، وأنا سآخذ منك عمولة مكتبي قيمة أجرة نصف شهر .

قال: كاك خوشناو، نحن لانعرف الفترة التي نقضيها هنا.

قال: لابأس، أرجو أن تكون عودتكم قريبة ماموستا. ثم أردف يقول: الأجرة الشهرية هي خمس ورقات - خمسمائة دولار أمريكي- وسنجعل مدة العقد ستة أشهر حتى يصدّق عليه

الأشاويس، وأنت تعطي شهراً بشهر، هل هذا يناسبك؟

قال: يناسبني كاك ، ممنون .

ملأ الرجل العقد، وناوله النسخ الأربعة كي يقوم بتصديقها.

عندئذ أخرج أجرة شهر مع عمولة المكتب مادّاً المبلغ إليه .

لفت نظره أن الرجل تباطأ بمد يده لتناول النقود ، لَبَثْتْ يدُه ممدودة حاملة الأوراق النقدية ، ثم ما لبث أن رأى دموعاً بدأت تنفجر في عينيه.

بعد قليل، مدّ يده متناولاً النقود ، ثم سحب ورقة بفئة المائة دولار وأعادها له قائلاً: أربعمائة تكفي.

بيت في هولير، وكأننا في حلم.

هتف بها لزوجته عند خروج صاحب المكتب الذي قام بتسليمه البيت قائلاً وقد أعاد إليه مائتي دولار بأنه يتبرع لهم بقيمة نسبة مكتبه في العمولة أيضاً .

شكره على هذه البادرة، قابلاً ورقة واحدة ، وتاركاً بيده الورقة الأخرى .

لدى خروجه ، أعطاه الرجل رقم هاتفه طالباً منه الاتصال به عند الحاجة.

بيت فارغ، لاشيء فيه، والطقس شديد البرودة، الأطفال يريدون الجلوس، لكن لاشيء ليجلسوا عليه، والليل يفترش

طرقات هولير التي بدت مثلهم في حالة نعاس وإرهاق.

في تلك اللحظات كم أراد أن يستلقي على ظهره ولو لساعة واحدة تريحه من حجم الإرهاق الذي بدأ يحتل كل ركن من مفاصله، وبدا الخروج للسوق كحمل جبل على الظهر بالنسبة إليه، بيد أنه لابد أن يخرج ثانية كي يبتاع ما يمكنهم النوم عليه حتى الصباح.

تناهت منه نظرة إلى «سيروان» الذي غفا على يدَي أمه الواقفة.

مد خطوات نحو الباب متمتماً: سأشتري ما يمكنني شراؤه وأعود.

قالت وقد مدت خطواتها إليه: سنأتي معك.

خرجوا جميعاً وقد بدأت زخات مطر خفيفة على شكل رذاذ تنهمر من كبد السماء.

بعد نحو عشر دقائق كانوا في سوق «لنكة » العامر بمئات المحال، والذي ذكرهم بسوق الحميدية في دمشق، بيد أنه بدا أكثر ازدحاماً، وأكثر غنى بمحتوياته من الحميدية.

اشترت ما رأته ضرورياً من فرش وأغطية ووسائد، وبعض ما أمكنها شراؤه لبيتها الجديد، وعادوا محملين بعد نحو ساعتين.

تناولوا وجبة سريعة مما أحضروا معهم من السوق،

واستسلموا للنوم مبكراً.

عندما فتحت آفان عينيها، رأت الضوء منتشراً في الخارج، مدت يدها إلى جهاز هاتفها الخلوي لتنظر إلى الساعة، حينها صدر منها صوت: انهض، لقد تأخرنا في النوم.

فتح عينيه متمتماً: كم الساعة الآن ؟

قالت: الحادية عشرة والنصف.

ثم أردفت: علينا أن نفعل شيئاً.

نهض من الفراش، وراح يغسل وجهه بماء بارد منتبهاً بأنه نسي أن يشعل السخان لتسخين الماء.

عندما عاد إلى الغرفة وهو يرتجف برداً، انتبه إلى المكيف الموجود في الغرفة، مدّ يده إلى جهازه الصغير وأداره قائلاً: شغّال يا عزيزتي.

ابتسمت قائلة: كيف لم يلفت نظرنا البارحة، لو علمنا لأدرناه في الليل، نال البرد من الأولاد.

ارتدى سترة وخرج صوب محلات مجاورة، اشترى بعض المواد الغذائية، ثم عرج إلى الفرن اشترى بألفي دينار خبزاً صموناً ساخناً، وعاد.

كان الأطفال قد نهضوا من نومهم بانتظاره، هكذا اعتادوا على بعضهم، يشعر أحدهم بغياب الآخر.

صنعت الشاي بواسطة الإبريق الكهربائي الذي كانت قد دسته في الحقيبة وهي تقول: والله ستأتي معنا، اشترينا ك منذ أسبوع، لم نر خيرك من شرك بعد.

جلسوا جميعاً يتناولون طعام الإفطار، عندئذ تناهى صوت الباب الحديدي، فنهض فاتحاً، وإذ ببعض الجوار يحملون حاجات.

دعاهم إلى الدخول ، ثم دنت زوجته مستقبلة النساء، اللواتي رحن يتبادلن معها القبلات كما لو أنهن على علاقة وثيقة سالفة.

ولجت النسوة ، بيد أن الرجال لبثوا واقفين يسألون عما ينقص البيت وهم يعاتبونه بشدة لأنه لم يبلغهم بحضوره يوم أمس حتى يقوموا بواجبهم تجاهه .

أحدهم قال بأن صنابير المياه تحتاج إلى استبدال، وقال آخر بأن خزّان الماء في الحمام يحتاج إلى تبديل، ثم أضاف: ويحتاج إلى دش.

بعد قليل أخرج أحدهم هاتفه الخلوي من جيبه، وأجرى اتصالاً مع صاحب البيت، الذي بدا على معرفة به، ودعاه للحضورعلى جناح السرعة.

لدى حضور الرجل، رحّب به وتمنى له إقامة طيبة في بيته، وقال بأنه مستعد لتقديم ما يمكنه من مساعدة.

أخبروه بأن عليه القيام بتجهيز الحمام، وتركيب ما ينقصه، وإصلاح صنابير المياه، وبعض التمديدات الكهربائية.

أبدى الرجل موافقته على ما سمع من طلبات، وقال بأنه صباح يوم الغد سيُحضر مَن يتولى مهمة هذه الإصلاحات، وتركيب المستلزمات.

ثم بدأت الطرقات تتوالى على الباب، حيث يدخل البعض، ويخرج ليعود حاملاً بيديه حاجة من مستلزمات بيت غير مفروش.

استمر ذلك حتى المساء حيث خرجوا قائلين بأنهم سيعودون غداً لاستكمال ما يحتاجه البيت ، طالبين منه ألاّ يلكف نفسه عناء شراء حاجة من الأدوات المنزلية .

عندئذ جلسا وسط أطفالهما تحت مشاعر من الدهشة، يريد أحدهما أن يزداد ثباتاً في تصديق ما رأى من خلال النظر إلى الآخر، وأن ذلك حدث معهما بالفعل ورأياه معاً رأي العين.

تساءل كلٌّ في سره: هل هي حميمية المشاعر القومية التي دفعتهم إلى ذلك، هل هي مشاعر إنسانية خالصة لاعلاقة لها بنوازع الانتماء العرقي.

لكن في كلا الحالتين، فإن العطاء لم يكن ليبلغ ذروته كما رأياه، لذلك تسرب إليه شعور بأن ماحدث هو نتيجة مزيج من تكاتف الإنتماء القومي الممزوج بمسك النزوع الإنساني.

حينها أدرك كم أن المعاناة الإنسانية يمكنها أن تصنع مجتمعاً متماسكاً يتمتع بدرجات متقدمة من رهافة الحالة الإنسانية حتى يتفوح بمسك عطر الإنسان.

عندما نهضا في الصباح، لم يشعراً بأي نقص في البيت، وانتابهما إحساس أنهما يقيمان في بيتهما.

بعد تناول الإفطار، لفتت حالة الجو نظرهما، إذ بدا اليوم خلاف الأمس، حيث شروق شمس دافئة، وكأنها شمس ربيع دافئ، عند ذاك اقترح على زوجته الخروج برفقة الأطفال للتعرف على ملامح المدينة.

عند خروجهما قال: أول ما يعيننا على إكتشاف جماليات المدينة، هو أن نتجنّب ما أمكن ركوب التكسي الخاص ، ونعتمد في مشاويرنا على المشي، وإن نال منا التعب، نستخدم وسائط نقل عامة.

قالت وهي تنظر إلى الأطفال وقد انطلقوا يهرولون بفرح أمامهما: يتيح لنا ذلك التقاط صور ومقاطع فيديو تذكارية .

قال: أتعلمين ياعزيزتي أن أكثر مدينة يتعرف عليها الإنسان، هي تلك المدينة التي تنال طرقاتها أكثر حظ من خطوات قدميه.

ثم بدأ يتأمل ملامح المكان وهم ينطلقون في طريق – بازار - المدينة، وقد خطر له في لحظة وهو ينظر إلى المارة أن أكثر الناس دراية بمدنهم، هم أولئك الفقراء الذين تفرض عليهم لقمة

عيشهم كي يجوبوا كل أركان مدنهم جيئة وذهابا بشكل يومي.

عملهم يتيح لهم تأسيس صلة معرفية وثيقة مع قاع المدينة وهم يتغلغلون في عمق أزقتها، يتعرضون لفيض أمطارها الغزيرة التي تبلل حتى ثيابهم الداخلية في صقيع الشتاء، كما تنهمر حبات العرق من جباههم وهم يتعرضون للهيب شمسها في ذروة ظهيرات الصيف، وفي الربيع يستمتعون بنسيم هوائها اللطيف، وعبير عطر أشجارها الفواح، والاستماع إلى زقزقة عصافيرها، ويمضي بهم الخريف وهم يجوبون الشوارع كسالى حاملين أثقالهم، يشهدون سقوط كل ورقة من علو شجرتها، تتعرض أجسادهم لهبات ريح عاصفة وهم يترنحون على منعرجات ضفاف طرقات مدنهم التي ألفوها، وألفتهم، إنهم عمّال عمارة الحياة في مدنهم.

بغتة رأوا أنفسهم في شارع مكتظ بأنواع الطيور والحيوانات، أرانب، ديك حبش، أوز، بط، حمام، بلابل، زرازير، دجاج. مضوا فيه حتى بلغوا جسراً قيل لهم بأنه جسر سيداوى، في ركن «آرد فروش» ثم ولجوا سوقاً مزدحماً انتهى بهم إلى قلب المدينة.

عندئذ مال الأطفال نحو حديقة مزدانة بنوافير المياه، وألوان الزهور، ونماذج لوسائط نقل، ومعيشة، وصناعة تراثية، ترفرف فيها طيور الحمام وكأن الناس فيها يحتفلون بالعيد، تطل عليهم القلعة الأثرية بكامل حلتها.

بدأت تلتقط صوراً للأطفال، ثم له، ثم تناوبوا في التقاط صور في لقطات فردية، وجماعية، ثم أخذ بعض مقاطع فيديو.

هكذا كما ضفاف الأحلام، كما هبوب الرياح، كما دفقات المد والجزر في المحيطات، بوسع الإنسان أن يستبدل جدائل مكان، بجدائل مكان آخر، أن يغادر دفء مجتمع، ليأنس بإيقاع دفء مجتمع آخر، أن يخرج من عمق واقع أزلي، ويتغلغل في رحابة واقع آخر.

هكذا بدا له أن الإنسان يمتلك مقدرة هائلة على قوة التجدد والتآلف ومقاومة أي ذرة شعور بالرضوخ،

بالهزيمة،

باليأس.

هكذا كما الأغنيات المتجددة..

كما عذوبة الموسيقى..

أناقة ثياب جديدة صبيحة عيد مجيد..

يمتلك الإنسان البالغ في عناده مقدرة نافذة على تقبل فكرة التجدد.

بدت هولير أمام ناظرَيه أعذب امرأة لم ترها عيناه من قبل، لم تتبرك قدماه بطواف محجها من قبل، بدت تسحره بكل لمسة من لمسات أناقتها الفائقة وهو يقاوم دفقات مشاعره الفياضة نحو وهج

تألقها.

عندما قرعت ساعة هولير في ساحة «البازار» المطلة على جبهة القلعة بالساعة الثانية والنصف، اقترح على زوجته أن يتناولوا طعام الغداء في أحد مطاعمها الشعبية.

كانت بمثابة فرصة سحرية أن يجلس مع أقرب وأحب خلق الله إليه، أطفاله الثلاثة، وزوجته.

هولير، مدينة الضيوف، والسياح، والنزلاء،

مدينة الجود، والهدوء، والأمن، وهي تعبق بعبير كورديتها.

هولير: جوهرة كوردستان الثمينة.

عندما بلغت الساعة السادسة مساءً، وصلوا باب البيت وقد بلغوا عتبات التعب .

فور وصوله اتجه إلى الغرفة التي باتت تُعرف باسمه، حيث اعتاد على قضاء بعض الوقت فيها في معزل عن ضجيج الأطفال.

يقرأ قليلاً من جهاز اللابتوب، يستمع الموسيقا والأغاني، يمضي وقتاً على الإنترنت. يشاهد ألبومات صور العائلة، مقاطع الفيديو، يتأمل، ثم يأخذ قسطاً من الراحة.

هكذا، كما لو أنه في البيت، هي ذات الطقوس التي يمارسها، ذات الحرية المفتوحة التي اعتاد على نمطها.

يخرج أحياناً بعد منتصف الليل، يقف نحو ربع ساعة أمام الباب يتأمل الشارع، أو يمضي وحيداً تحت أضواء المصابيح، أحياناً ينسى بأنه يمضي في الشارع، فتنبهه صافرة حارس، وهو يدخل شارعاً.

يعتذر، ثم يعود بخطواته إلى البيت، يلقي نظرات إلى أطفاله النائمين إلى جوار أمهم على نحو عشوائي، يعدلهم بشكل جيد، ويلقي عليهم أغطية، ثم يلقي بجسده على فراشه مستسلماً لاسترخاء المفاصل.

بعد وصولهم بنحو ساعة، تناهى صوت الباب، راحت زوجته تفتح، وبعد قليل بلغه صوتها مرحباً بالقادمين.

نهض مستقبلاً بعض الجوار الذين قدموا ليسألوا عن أي حاجة تنقصه.

كانوا ثلاثة رجال مع زوجاتهم حاملين حقائباً، وعلباً، وأجهزة كهربائية، ومدفأة تعمل على النفط.

وضعوا الأغراض في الداخل، وعادوا حيث السيارات الكبيرة الواقفة بمحاذاة الباب، ينزلون منها ما تبقى من أغراض.

لبث واقفاً مع زوجته دون أن يسمحوا لهما بالتقدم وحمل أي شيء معهم.

بعد نحو نصف ساعة انتهوا من تنزيل حمولة بيت كامل،

وضعوا كل حاجة في مكانها حتى أن بعض الحاجات باتت مكررة لأن الرجال الذين حضروا البارحة كانوا قد جلبوها.

خلال ساعتين من العمل انقلب البيت كله رأساً على عقب حيث مفاخر السجاد، والأوسدة، والبطانيات، والموكيتات، وثياب الأطفال، والألعاب، والأسفنجات، والدواشك، واللحف، وبوتوغاز، ومزيد من مستلزمات المطبخ.

عندما فرغوا، دعاهم للجلوس، عندها قال أحدهم بلهجته الصورانية: أنتم أكرادنا حللتم بين أهلكم ، سنكون لكم عوناً حتى يرى الله لكم سبيلاً وتعودوا إلى دياركم .

قال آخر: مررنا بتجربة النزوح مثلكم، عندما تم قصفنا بأسلحة كيماوية، حملنا أطفالنا ولجأنا إلى أكرادنا في أيران، مشينا تحت الأمطار والعواصف في العراء، منّا مَن قضى نحبه نتيجة الغازات السامة، والبرد، والرعب، ومنّا من بلغ الحدود بالكاد وقد أنهكه ذعر القصف الكيماوي.

كانوا لنا نعم المستقبلين، أسكنونا بيوتهم ، أطعمونا طعامهم، ألبسونا ثيابهم،

قاموا بواجبهم القومي والإنساني نحونا.

قال الرجل الثالث: نحن نرجوك ونتوسل إليك أن تسمح لنا أن نرد لهم بعض جمائلهم علينا من خلالكم، هذه هي فرصتنا الوحيدة حتى نقدم شيئاً لألئك الذين قدّموا لنا كل شيء.

عاد الرجل الأول إلى القول: هذا رجاء خاص، ونرجو ألاّ تخيّب أملنا ، ليس بالضرورة أن يكون الضيف بحاجة حتى يلقى التكريم من مضيفه ، بل هذا هو واجب المضيف تجاه ضيفه ، عندما نقصّر تجاهكم ، سيكون هذا نابع من تقصير في مشاعرنا تجاه إقليمنا الذي سقينا كل حبة تراب فيه بدمائنا ، لقد ضحينا من أجل أن نعيش مثل هذه المشاعر في يوم كهذا بالغالي والنفيس ، فنرجوك ألاّ تحرمنا من ممارسة مشاعر الإحتفاء بكم حتى لاتحرمنا من مشاعرنا بأن إقليمنا هو حقاً بيتنا الكبير ، وأي ضيف يدخله ، إنما هو ضيفنا جميعاً .

عندئذ بدأت النسوة تذرف الدموع، ثم ما لبث الرجال أيضاً أن بدأوا يذرفون الدموع ويحتضنونه، يضمون أطفاله إلى صدورهم: لقد لذتم من هول الحرب بأخوة لكم، إنكم تذكّروننا بأهوال حلبجة، بمأساة الأنفال، بعمليات الإبادة العرقية ، أنتم نحن، ونحن أنتم، أطفالكم أطفالنا، أطفالنا أطفالكم.

تناهت نبرات امرأة وهي تتمتم لزوجته: لن يهدأ لنا بال يا أختي إن لم نركم في عيشة أفضل من عيشتنا، تأكلوا أفضل مما نأكل، تلبسوا أفضل مما نلبس.

نحو عشر دقائق أمضوا جالسين، وما لبثوا أن نهضوا معتذرين عن تناول الشاي: ندعكم ترتاحوا «خوا حفيظ» بحفظ الله.

في صبيحة اليوم التالي راح إلى مختار الحي الذي أعطاه وثيقة سند الإقامة، ثم قام بتصوير ما لديه من وثايق تصويراً ملونا، بالإضافة إلى صور له ولزوجته كما أرشده صاحب المكتب، واتجهوا إلى حيث المخفر.

استغرق الأمر نحو ساعة، ثم أعطاه رئيس المخفر ثلاث نسخ من العقد، واحتفظ بنسخة لديه قائلاً بأن نسخة له، ونسخة لصاحب المكتب، ونسخة لصاحب البيت.

* * *

هه....

و....

ل.....

ي.....

ي....

ر....

ر....

من جنبات هولير يفوح عطر التاريخ، كلهم ذهبوا، وبقيت هولير، تزداد ألقاً، تكتمل جمالاً حاضنة أمينة لأبنائها الكورد، وقد لبثوا متشبثين بها، ولبثت متشبثة بهم في سفينة يمّ التاريخ.

يشعر أحياناً بأنه في منتزه كبير على سرير هولير التي تتوسط الزاب الأعلى، والزاب الأسفل، بحيث يكون شرقها أعلى من غربها، وشمالها أعلى من جنوبها.

يطوف قضاءاتها:

قضاء خبات..

قضاء جومان..
قضاء سهل أربيل..
قضاء رواندز..
قضاء شقلاوة..
قضاء سوران..
قضاء مخمور..
قضاء كوية..
قضاء ميركة سور..
قضاء مركز أربيل.

يطوف محراب النواحي الغارقة في رائحة كورديتها:
آشتي..
باسرمة..
بارزان..
بحركه..
باليسان..
تق تق..

بيران..
خليفان..
حاجي ئومران..
دار شكران..
دارتوو..
رزكارى..
ديانا..
سميلان..
سكتان..
سيدكان..
سه لاحه دين..
شمامك..
سيكركان..
شيروان مزن..
شورش..
قراج..
عينكاوه

كَسنزان..

قوشتبه..

كَلاله..

كَوركوسك..

كَوير..

كَوره تو..

هرير..

مزنى..

ورتي..

هيران.

في دجى الليل، وهو مستلق على ظهره باسترخاء في فراشه يستمع أنغاماً كوردية هادئة، ولجت إليه هولير كفراشة وديعة، نهض احتفاءً بدخولها الزاهي..

هولير، تتأنق بمفاخر ثياب إرث كورديتها، تتحلى بنفائس جواهر ولآلئ آل الكورد، تقف بقدميها المباركتين على كل ذاك الإرث الغائر في عمق التاريخ.

يرتبك من سحرية حضورها، تتعثر الكلمات على لسانه: فرمو عزيزتي، دانيشي. تفضلي عزيزتي، اجلسي.

هولير، رغم أنها تجيد كل لغات العالم، إلاّ أنها تصر على لغتها الكوردية المزدانة بألق لفظ اللهجة الصورانية.

ها هي هولير تفي بعهدها معه، منذ نحو شهر بينما كان مستسلماً لغفوة مسائية في غرفته، أحس بلمسات أنامل ناعمة تداعب محياه.

ظن بأنها «آفان» بيد أنه شم رائحة غريبة إندفعت إلى خياشيمه لم يعرفها من قبل ، لم يحظ بمثل تلك الرائحة النفيسة من قبل ، رائحة بعثت النشوة إلى سائر بدنه .

عندما فتح عينيه، بوغت ببريق أبهة امرأة يراها أول مرة، ظن للوهلة الأولى أنه واقع تحت سلطة حلم، لكن الصوت أثبته في قوة اليقظة متمتماً : جئت أرحب بضيفي.

جلس في الفراش وهو ينظر إليها دَهِشاً، فاستأنفت تقول: «أنا هه وليرِ».

انتفض عند سماعه الإسم، لكنها استأذنته قائلة بأنها ستزوره مرة أخرى، وستجلس معه، وزيارتها هذه هي للترحيب فقط، لأنه حلَّ ضيفاً مع عائلته عليها.

كان لقاءً خاطفاً حتى أن الأمر أحياناً يلتبس عليه، فيظن بأنه كان في حلم، فهي لم تترك أثراً يشير إلى حضورها.

منذ ذلك اليوم وهو يعيش حالة ترقب دائمة بانتظار أن تفتح

الباب وتدلف في أي لحظة متوقعة أو غير متوقعة .

بدأ يطيل السهر في غرفته حتى أنه أحياناً يستسلم لسلطان النعاس، فينام فيها حتى يدركه الصباح، وأحياناً تنهض آفان في ساعات متأخرة من الليل، وعندما لاتراه في فراشه، تلج إليه في الغرفة وتيقظه، فيذهب يستأنف النوم على فراشه في الغرفة الكبيرة.

جلست وهي تتمتم له : هل يعوزك شيء ؟

قال: لم يكن يعوزني غير رؤيتكِ.

قالت: أعرف أهلي جيداً، إنهم يحافظون على تقاليدنا الكوردية، ومروا بظروف أكثر من قاسية كان من محاسنها أنها جعلتهم أكثر رهافة في مشاعرهم .

إن قلوبهم شفافة كقلوب الحمام تملؤها الرحمة والشفقة ونقاوة الحسّ الإنساني.

بدأ في حالة صمت مهيب، لاينبس ببنت شفة، بل يحرص على ألاّ تصدر منه حركة وهو في حضرة عذوبة حديثها.

أردفت تقول: الضيف لا يكون محتفىً به إلاّ إذا أحسّ بأنه يعيش بشكل أفضل مما يعيش وهو في بيته، أنت ضيف لذتَ بنا مع عائلتك في شدة، وهذا جعل مسؤوليتنا مضاعفة نحوك.

لم يكن يصدق أن مدينة كاملة يمكنها أن تتمثل في هيأة امرأة،

وتأتي لترحب به لولا أن ذلك يقع معه، ويراه رأي العين، يصغي لنبرات صوتها إصغاء الأذن للصوت، بيد أنه رغم ذلك سألها قائلاً: كيف استطعت أن تتمثلي بهيئة امرأة، وتدخلي إليّ.

ابتسمت قائلة: كما أن للناس عند ربهم مكرمات، للمدن أيضاً عند ربها مكرمات.

أنا هوليز..

سيدة أمجاد الكورد..

قلعتي الشامخة شاهدة على أمجادي..

من أجل ضفائري تنازع جبابرة العالم..

أعدّوامن أجلي ما استطاعوا من قوة، ومن رباط الخيل..

أقاموا في ربوعي حيناً من الدهر ..

ثم مالبثوا أن مروا بي مرور الكرام..

أنا هوليز..

مدينة الكورد الأزلية..

صاحبة عصمة أكرادي..

لا شيء لي دونهم..

لا شيء لهم دوني ..

أنا هوليز..
فضة أحلام الملوك..
محط أنظار الجبابرة..
مكمن أطماع الغزاة..
مدينة الآلهة الأربعة..
مقام حاملة الإرث البابلي عشتار المقدسة.
أنا هوليز..
نزهة الساسانيين..
حديقة البارثيين..
مخبأ كنوز الفرثيين..
سياحة السلوقيين..
كنيسة الآشوريين..
جوهرة أبناء فارس النفيسة..
ضفة العثمانيين..
زهرة إمبراطورية أور الثالثة..
ساحرة الملك السومري الجميل شوكي..
ملهمة آشور باني بال..

مربع عرش إمبراطور آشور سنحاريب
أنا هولير
حاضنة كهف شانده ر الأزلي
ماوى إنسان الينادرتال السحيق
لؤلؤة كوردستان المجيدة
وسادة الميديين في ليالي الوحشة
محطة غزوات الرومان
محظية هولاكو
عروس إمبراطورية الصفويين
حلة تيمورلنك النفيسة،
أسيرة الطليان الجميلة.
أنا هولير
قصبة حفدة الكورد الذهبية.
أنا هولير
لي عند ربي مكرمات.

لبثت تنظر إليه مبتسمة، معبرة عن حفاوتها بزيارته لها، تبتسم رغم شموخ الحزن الظاهر على سحنتها.

لم يسبق له أن لمس الحزن في قمة ألقه وهو يبدو كنجوم في سماء الوجه، بدا

حزناً يألفه لأول مرة، حينها لم يملك نفسه من سؤالها: أرى جبلاً من الحزن يضفي هالة من الشموخ عليك.

قالت: مسحة الحزن هذه ورثها أبنائي عني، هذه القلعة التي أقيم فيها بُنيت بدموع أسيرات الحروب، كل ذرة تراب فيها ممزوجة بدموع امرأة أسيرة، كانت تلبي أوامر البناء مع أخواتها وهي تحمل الحجارة والصخور والتراب حتى اكتمل بناء القلعة كي يتوجني فيها الملوك.

عندئذ خطر له أن يسألها عن عمرها وهي تتمتع بذروة لياقة الصبا فقال: كم عمرك يانور العين ؟

قالت: أنا مهد الإنسان.

قال: تبدين صبية في ربيعها الثامن عشر.

قالت: هذا إذا قست أعمار المدن بأعمار الإنسان، المقارنة هنا لا تحظى بالدقة.

أعمار المدن لها خصائصها التي تختلف كلها عن أعمار

الإنسان.

قد ترى مدينة وقد شاخت في عمر ثلاثمائة سنة، وقد ترى مدينة ماتت في عمر ألف سنة، وقد ترى مدينة في أوج صباها في عمر عشرة آلاف سنة.

حيوية المدن لاتقاس بأعمارها، إنها تقاس بأمجادها.

قال: علمتُ بأن لك أكثر من إسم، ما سر هذه الأسماء.

قالت: أسمائي كثيرة، منها تعرفها ، ومنها لايعرفها أحد غيري، كل قوم كان عندما يسكنني، يطلق عليّ اسماً.

قال: لي طمع ياسيدتي كي تروي لي أسماءكِ.

قالت: من أسمائي التي اشتهرت بها في الناس:

خولير...

هاوخور...

هوير...

أولير...

هه ولير...

أوربيلم...

أربائيلو...

أوربيليوم...

أربيل...

أربا أرلا...

ئاربيرا...

ئاربل...

ئاروبل...

أربيلاس...

أربيليس...

أرويل...

أربيرة...

أربيلا...

ثم أردفت تقول: لكن أحب أسمائي إلى قلبي هو: هه وليز لأنه من زبدة صفوة اللسان الكوردي الذي أقف به على جذوري.

تحسدني مدن العالم على تهافت ملوك وأباطرة وسلاطين الأرض لإشادة عروشهم في رحابي.

ذات يوم من سنة ٢٠٠٠ قبل ميلاد المسيح قال لي الملك السومري شوليكي بأنه يفخر أن أكون من أكثر أملاك سومر عماراً بالحياة والجمال.

يومها استأذنني ليدلعني باسم «أوربيليوم» وكان ذاك الإسم من أحب الأسماء إليه، كنتُ دائمة التردد على لسانه، وعندما كان يلفظ إسمي، كان كمن يتذوّق قطعة حلوة.

ذات أمسية عندما كان ساهراً في قلعتي مع عائلته، قال لزوجته بأنه عندما يلفظ إسمي يشعر بأن نبرات صوته تحلو، فلمستُ حينها شيئاً من شظايا غيرة وقد علت محياها.

لكن، وكما هي العادة، فإنهم نزحوا عني، وبقيتُ أسحرهم، فاشتقوا أسماء مدنهم الجديدة: أور، أديرو، أورك، من ثنايا إسمي.

إفتر جمال ثغرها الوردي بلمسة بسمة، وأردفت تقول: لكنني ذات يوم فوجئت بملك أور يطرق أبوابي مستعيداً مجد سومر، ورأيتني متوَجة بلقب سيدة إمبراطورية أور الثالثة لا ينازعني في منزلتي أحد.

عندما سكنتني الأقوام الزاكروسية من ميديين، وكوتيين، وأورارتو، وخوريين، وكاشيين، وميتانيين، تباروا وتنافسوا فيما بينهم لجعلي أكثر مدن الأرض جمالاً، وتمتعاً بنفوذ سياسي، وإداري، ومالي، ومنزلة رفيعة.

كانوا يتنافسون في جعلي لؤلؤة إمبراطورياتهم.

كرمني الآشوريون عندما قطنوني بأن جعلوا في ربوعي عرش عشتار المقدسة، وكللوني في كتابات مسمارية: «أي ـ كشان ـ كلاما» وقالوا لي: أنت بيت سيدة الإقليم، فاكتسبتُ بذلك

رمزية دينية لسائر أبناء وحفدة آشور من بعده الذين يعتبروونني محجاً، ويأبون فراقي حيث ما زالوا يقطنون في رحابي، يشمّون من جدراني، ومن ذرات تراب قلعتي روائح أجدادهم.

عندما اشتد عود أجدادك الميديين سنة سبعمائة قبل المسيح، لم يهنأ لهم بال حتى أتوا بجيوشهم وانتزعوني بقوة حدّ السيف من أبناء آشور، وقد أعادوني إلى منبتي الكوردي، حيث احتفلوا بتكليلي جوهرة إمبراطورية ميديا، لكن جمالي لبث يسحر الملوك وقادة الأرض، فانتزعتني براثن دولة «هه خه ماني» الأخمينية.

لم يرق الأمر للإسكندر المقدوني، فشن من أجلي معركة أسماها «أربيلا» وانتزعني بالقوة ليجعلني مُلكاً لإمبراطورية حفدة يونان.

وعندما اشتد عود الملك الأرمني «نيكران» درتُ ذات ليلة في خلده، فلم يهدأ له بال حتى جاء وانتزعني بالقوة ليجعلني مدينة الأرمن الأثيرة.

بدأ وكأنه يطوف رحابة عالم من الماضي السحيق، وهو يشم رائحته، يتأمل نجاحاته، وإخفاقاته، انتصاراته، وانكساراته.

يشعر كم أنه كان بحاجة إلى التحليق في ذاكرة تلك الخبرات البشرية المتراكمة، كم أنه يحتاج إلى العودة لأقصى الماضي، ليمكّنه ذلك الغوص في أقصى عمق الواقع، ويمهّد له نظرة جلية إلى أفق المستقبل.

استرسلت تقول بروحانية فائقة:

ما لفت انتباهي، هو أن أي امبراطورية عبر تلك الأحقاب لم تشعر بأنها امبراطورية مكتملة في قوامها إن لم تتوجني في ملكيتها.

كانت تشعر بنقص حتى لو ملكتْ كل أرجاء الأرض، لأنها كانت تضع الأرض قاطبة في كفة، وتضع هولير في كفة مقابلة.

* *

*

استفاق على صوت آفان وهي تقول: مرة أخرى تركتنا ونمت بمفردك هنا، هذا الفراش غير مريح، يسبب لك آلاماً في الظهر.

فتح عينيه، ألقى بنظرات حوله.

تمتم بعبارات اعتذار على تركهم ونومه هنا بمفرده مرة أخرى: يبدو أن النوم أخذني على غفلة.

عندما خرجت آفان، تذكر ما وقع ليلة البارحة، حين دلفت إليه هولير وساهرته حتى نام على إيقاع نبرات صوتها، كانت تدندن له كما لو أنها تشدو بأعذب لحن وقع على سمعه.

يذكر أن موجة ثقيلة من النعاس دهمته بغتة، وهي تخبره بأنها ستستودعه كي تذهب إلى الصلاة في محرابها الكائن في مدرج قلعتها.

قال: هل تصلين يا هولير ؟

ابتسمت قائلة: المدن مثل الناس، ثمة مدن صالحة، وثمة مدن فاجرة، ثمة مدن مطيعة، وثمة مدن تعصي أوامر ربها.

ثمة مدن تصوم، تخرج زكاتها، وثمة مدن لا تعرف للصوم والزكاة رائحة، ثمة مدن ذاكرة، وثمة مدن جاحدة.

نهض من الفراش متجهاً إلى المغسلة يغسل وجهه، عندئذ تناهى صوت زوجته: سأضع إبريق الشاي على الغاز ريثما

تحضر الخبز.

عندما حضر إلى هولير، اكتشف أن الناس هنا يعتمدون على خبز «الصمون».

في الأيام الأولى بدا الأمر غريباً بالنسبة إليهم، فقد اعتادوا على الخبز المرقد

الذي يتم صناعته في المخابز الآلية الحكومية.

كانوا يستخدمون الصمون في بعض المناسبات، أو في بعض حالات المرض، لكنهم مع الأيام اعتادوا على استخدام الصمون اللذيذ خاصة عندما يخرج لتوه من الفرن.

لفت نظره تكاثر الأفران الأهلية في المدينة، وفي أحيائها، وقد اعتاد الناس على شراء الخبز منها مع الوجبات اليومية الثلاث بشكل طازج وساخن.

لم يقتصر ذلك على مادة الخبز وحدها، بل يشمل غالبية المواد

الغذائية، حيث يبتاع الناس حاجاتهم اليومية فقط دون أن يلجأوا إلى تخزين الطعام، أو المونة في المطابخ، أو الثلاجات.

عندما يفقد الناس شعورهم بضمانة الجوع والفاقة، يكون الأمر مخالفاً لذلك، حينها يمكن للمرء أن يشتري حاجة عشرة أيام من الخبز، ويودعه في الثلاجة، يشتري خمس دجاجات، وكميات من اللحم، أو السمك يمكن أن يستخدمها لمدة شهرين.

كذلك الأمر بالنسبة للمونة من الجبن، والبازلاء، والمحمرة، والمربى، والبامياء، والمكدوس، والمحاشي، والفول.

وخطر له أن مردّ ذلك هو خوف الناس دوماً من شحّ المواد الغذائية ونفوذها، فيقعوا أسرى شبح الجوع والمحل والقحط الذي يسكنهم كهاجس ولا يبرحهم، لذلك كلما انهالوا على مادة، رفع التجار من قيمتها، ولو تركوها واشتروا منها كفايتهم اليومية فقط، للبثت في حالة مستقرة في قيمتها خلال أيام السنة، ولَلَبِثُوا يستخدمونها وهي في ذروة طزاجتها.

هكذا، عبر السنوات يتشكل لديهم هاجس عدم الثقة بالغد الذي يبدو قاتماً ومجهولاً بالنسبة إليهم، إذ لا ضمان فيما لو لبث المرء جائعاً، عندها تكون كل الاحتمالات مشرعة، وليس هناك من باب في البلاد يمكن له أن يقدّم رغيفاً من الخبز إليه في ظل وعي اجتماعي يتآكل ويتضاءل على أكتاف واقع مأساوي متراكم عبر تفاقم السنوات.

هنا، بدا له الأمر مختلفاً، وشبح المحل ليس بوسعه أن يستبد بأحد، يذكر أن هولير قالت له بأنها لاتتخلى عن أبنائها، ولايستقر لها بال قبل أن ترى جميع الناس في موطنها وقد تناولوا طعامهم من إفطار، وغداء، وعشاء، وتناولوا فاكهة طازجة، ارتدوا ثياباً جديدة، استلقوا في فرش مريحة، عندما يتعسر الأمر على أحد هم، يلقى عندها الأزر.

إنها تتحصن في قلعتها على نفائس كنوز الجوهر، واللؤلؤ، والذهب، والفضة، التي خبأتها لأبنائها عبر أحقاب الزمن السحيق كي يجدوا عندها الملاذ عندما تضيق بهم سبل عيشهم الكريم.

عندما همّ بالخروج، رأئ ابنه «لاوين» جارياً ليخرج معه، أمسك بيده وخرجا إلى حيث الفرن، أمام دكان مجاور، فوجئ برجل ينادي الطفل، ينحني ويطبع قبلة على خده، ثم يدخله الدكان، ويملأ له كيساً من البسكوت، والسكاكر، والشوكولاة، والكاتو.

رغم أن ذلك يسبب له حساسية، إلاّ أنه يدرك مع ذات الإحساس بأنه لا يرفض الهدية غير لئيم، ورفض اليد التي تحمل هدية، يسبب جرحاً وحرجاً للشخص قد يكون أقسى وقعاً عليه مما لو كانت يده ممدودة للمصافحة.

حتى أنه ذات يوم أخبر زوجته بهذا الإحساس عندما بدأ يلاحظ كثافة الهدايا، فقالت له بأنها لا تقبل على نفسها أن ترد

امرأة حضرت لزيارتها، وهي فرحة بأنها تقدم لها هدية.

بيد أنها تخبر المرأة بذات الوقت بأن وضعها المعيشي جيد ولا تحتاج إلى مساعدة .

مع مرور الأيام اتفقا على تقديم الهدايا كذلك للجوار لإعطائهم شعوراً بأن لديهم كفايتهم، وما يفيض، فغدت آفان تقدم أطباق ما لذَّ من طعام إلى الجوار، وتقدم لهم بعض الهدايا التي تبتاعها خصيصاً لهم من المدينة.

وبدأ من جهة أخرى يتقصد الخروج بثياب أنيقة، ويستخدم التكسي الخاص لبعض مشاويره في الذهاب والإياب، كي يعطي صورة للجوار بأنه عندما أتى من دياره، جلب كفايته من المال معه.

اشترى بألف دينار صموناً، ثم علبة من اللبن الإيراني المبستر، وصحناً من البيض، وعاد أدراجه إلى البيت يلحقه ابنه.

كانت آفان قد أحضرت طعام الإفطار المكون من زبدة، وزعتر، ودبس، وزيتون، وعسل، ثم راحت تسكب صحناً من اللبن، وتقلي البيض.

جلسوا جميعاً على مائدة الإفطار الشهية على وقع صوت فيروز الذي يصدر من جهازه الخلوي.

بعد الانتهاء من الطعام، استلقى على ظهره يأخذ قسطاً من

الراحة، في حين شرعت آفان تهيئ الأطفال للخروج، لأن اليوم موعدهم لقضاء النهار في القلعة، كانوا في الأيام الماضية قاموا بزيارتها في أوقات عابرة، لكنهم اليوم قرروا تخصيص النهار كله لها.

القلعة التي تطل على سوق نيشتمان في قلب المدينة التي ترتفع ١٥٠ قدماً على مساحة ٦٠٠٠٠ متراً مربعاً، وقطر ٤٠٠ ياردة.

الذي يزور هولير، ولايرى قلعتها كمن لم يزرها، قلعتها التي تتفوح بعطر أمجادها.

بدت القلعة في أنظارهم عروساً، وقد بدأت معالم الخضرة تكسوها في بدء انطلاقة شهر مارس الذي يحفل بمناسبات الكورد حيث لم يحفل شهر مثله، فهو الذي شهد أبرز انتفاضاتهم المفصلية التي أدت إلى استقلال الإقليم بحكم ذاتي سنة ١٩٩١، وهو الذي شهد أكثر جرائم البشرية دموية من خلال حملات الإبادة، وقصف مدينة حلبجة المنكوبة بأفتك الأسلحة الكيماوية، وهو الذي يتم تتويجه باحتفال عيد النوروز، حيث يخرج الكورد لإشعال نيران نوروز كرمز لفاتحة الحرية.

عادت كلمات هولير إليه وهي تروي له كيف أن الملك الآشوري سنحاريب بذل كل ما بطاقته حتى يمدّ المياه إلى ربوع القلعة التي تعلق فؤاده بها ، وعبّر عن دفق مشاعره بهذا الإنجاز

كاتباً بلغته المسمارية ذات يوم على ضفاف نهر بستورة :

أنا سنحاريب، ملك بلاد آشور

حفرت ثلاثة أنهر من جبال خاني

التي في أعالي مدينة أربائيلو

وأضفت إليها مياه العيون التي في اليمين واليسار

من جوانب تلك الأنهار

ثم حفرتُ قناة إلى وسط مدينة أربائيلو

موطن السيدة الجليلة

الآلهة عشتار

وجعلتُ مجراها مستقيماً.

بدت القلعة في ناظرَيه شاهدة على بصمات تاريخ من عمر الزمن والبشر معاً، شاهدة على جشع الإنسان، شاهدة بأن الجميع مضوا، ولبثت حية يتجدد شبابها على رأس كل مارس.

يستمتع بإلقاء نظرات إلى جمالية القلعة، يشم منها رائحة التاريخ، يتفحص سمات شفافية الحزن على سحنات الهوليريين، يتذكر كلام هولير عن خصوصية هذه السمات، ثم يجوب بنظراته إلى القلعة، وهي تبدو في حالة حزن

مهيب، هذا الحزن الذي يمدّها بطاقة من الحياة، فتمدّ الناظر

إليها بمشاعر عالم روحاني، يشعر بأنه داخل إلى سرمدية مملكة روحانية.

كم من أناس مروا بها، كم من امبراطوريات وممالك وعروش تنازعت من أجل الظفر بها.

ها هم الناس من كل أطراف الدنيا يتسربون إليها، يلتقطون صوراً تذكارية في أرجاء معالمها، الذي يأتي إلى العراق، ولم ير كوردستان، كمن لم يأت، والذي يأتي كوردستان، ولم ير هولير، كمن لم يأت، والذي يأتي هولير، ولم ير قلعتها كمن لم يأت.

حتى المسلمين عندما اشتد بهم العود، لم يشعروا باكتمال إمبراطوريتهم دون هولير، فكان الزحف إلى فتح المدينة فتحاً إسلامياً، وإضفاء طابع الإسلام عليها.

تذكر بسمة هولير التي تلألأت على شفتيها الورديتين: كان ذلك في عهد الخليفة

عمر بن الخطاب، عندما تولى عقبة بن فرقد الموصل، ثم

امتدت يده إليّ عن طريق شرقي دجلة، وكللني مدينة جديدة في إمبراطورية الإسلام.

عندما جاءت الخلافة العباسية، عدتُ إلى أيدي أبنائي الكورد من الهذبانيين، وعادت قلعتي مستقراً لحكمهم، لكن عماد الدين الزنكي استطاع مرة أخرى أن ينتزعني، ويخضعني إلى حكمه، واستأذنني زين الدين علي كوجك كي يقيم إمارته عليّ وقال لي بأنه سيسميها: الإمارة البكتكينية، ثم تولى حكمي أخوه مظفر الدين كوكبري وقد تزوج ربيعة خاتون، أخت صلاح الدين الأيوبي.

يومها، عاهدني بأنه سيجعلني من أجمل وأقوى الإمارات الإسلامية، وقد أوفى بعهده لي، وبنى أربع خانات للعميان، وفّر فيها احتياجاتهم، وبدأ يقوم بزيارتهم عصر كل يوم إثنين وخميس، ثم بنى تكايا للصوفية، وداراً للأيتام، وأخرى للنساء الأرامل، وأنشأ المدرسة المظفرية، ثم جعل بيتاً كبيراً للضيافة يأوي إليه كل ضيف قادم إلى ربوعي، فكنت مكمن قوة الإسلام، وإمارة السحر والجمال في دوحته.

هذا الكلام، ذكره بطقوس يوم عيد المولد النبوي، حيث رأى هولير ترتدي حلة من الزينة بقباب مساجدها، ومساحات شوارعها، وجدران بيوتها وهي تستعد للاحتفال بيوم مولد النبي.

إنها أول مرة يشهد فيها يوم مولد النبي في ديار كوردية

يحكمها الكورد.

في الصباح، بدأت الطرقات تتوالى على الباب، وبدأت النسوة في توزيع الحلوى والسكاكر، ابتهاجاً بهذا اليوم.

هذه الطقوس التي أخذها الهوليريون عن الأمير مظفر الدين كوكبري الذي أقام المولد النبوي في إمارته لأول مرة وجعل ذلك تقليداً لأبنائها.

وتضحك هولير بقهقهة هذه المرة، تطول بها قهقهتها العذبة وهي تروي له ما يخطر ببالها مما رأت: لكنني وكما اعتدتُ على أطماع الجبابرة، رأيتني مرة أخرى في دائرة الجيوش والحروب عندما أغريتُ هولاكو الذي بدأ نجمه في الظهور، يومها قال لي: لو ملكتُ العالم كله، ولم أملككِ يا سيدتي، كأنني لم أملك شيئاً، لتعلمي بأن الأرض كلها هي صحراء خالية دونك، أنت ربيع الأرض، وجوهرة مدن التاريخ.

قاومه أهلي ستة أشهر وهم يتحصنون بقلعتي، لكنه كان يزداد عناداً وتهوراً، ويقدم على التضحية بكل ما يملك من أجل أن يحتلني ويقيم مدينة آمنة له في رحابي.

وقد أوفى هذا الرجل بعهده معي، فأقام احتفالاً إمبراطورياً ضخماً توجني فيه أميرة الإمبراطورية المغولية المترامية الأطرف، وسيدتها الأولى بامتياز لا ينازعني في منزلتي منازع.

لكنها عادة أهل القوة الذين يستقوون من أجلي على الأقوياء،

ولايكلل قوتهم، ولايثبت مجدهم غيري، فجاءني الجلائريون وقد أعقبوا الإيلخانيين، ثم تولاني قرة قوينلو الخروف الأسود، ومن ثم أق قوينلو الخروف الأبيض، وعندما لمع تيمورلنك، أقدم بجيوشه على غزوي، ثم انتزعني من براثنه الصفويون، لكن ذلك لم يرق للسلطان سليم الثاني، فأقام معركة جالديران وسحبني من إمبراطورية الصفويين كما تُسحَبُ شعرة من عجين.

أخذتْ تُدَنْدِن ببحة شجية، وبدأت عيناها تترقرقان بفيض دمع كما لو أنه لؤلؤ ، وصوتها يثقل بغصة بكاء:

أنا هولير..

ملكة ملوك الأرض..

أميرة الأمراء..

سيدة السادة..

سلطانة السلاطين..

جوهرة المعمورة النفيسة..

أنا هولير..

لا أحب الضعفاء، المهزومين، المستسلمين، الواهنين..

أحب أن يقاتل أبنائي من أجلي كما قاتل ملوك وجبابرة الأرض من أجل شعرة في رأسي..

أنا هوليرِ، سيدة أمجاد حفدتي.

حينها بلغه يقين أن لا مكان للمترهلين والقاعسين والعاطلين عن العمل في عُرف هوليرِ، إنها مدينة الحراك المستمر، مدينة التألق التي لا ترضى بضيم.

تحثّ أبناءها كي يزدادوا قوة، وكلما ارتقوا إلى مفاعل القوة، كلما بلغوها، كلما خاروا إلى مفاصل الوهن، كلما تلاشت من ظهرانيهم كخيط دخان.

إنها تحضهم كي لايغفو لهم جفن وهم يقعدون لحراستها ليلاً نهاراً، يفلحون تربتها، يبنون جنباتها، يغسلون طرقاتها، يقدمون لها درر الألماظ، وجواهر اللآلئ النفيسة، يتسابقون في نيل رضاها، يقدمون فلذات أكبادهم الثمينة قرباناً لها.

من ناحية أخرى لفتت انتباهه جمالية الأسماء الكوردية بين الأهالي:

رندة: المتأنقة

هيزان: قوي

جودي: قوم كوردي قديم

لاوين: شاب فتي

آزاد: حرية

سَروك: قائد

سكفان: هدّاف

رزكار: متحرر

أياز: ملحن

بيريفان: حكم

شفين: حراسة الأغنام ليلاً

بنكين: منادي

آرتيش: جيش

ستمبار: مظلوم

ستمكار: ظالم

ليلان: سراب

شيرفان: محارب

سامان: صبر

نرفين: حقل أخضر

مجدار: صابر

نرمين: نعومة

بروين: فراشة

ريوان: مرشد

لورين: هدهدة النوم

كورتان: سراج

بربريك: الفراشة

جانة: الروح

سوزدار: معاهد

جوان كول: وردة جديدة

شار: مدينة

ريجين: طريق الحياة

ديلوك: موال

نازك: شفافة

نازدار: رقيقة

ريبر: قائد

شيروان: راعي الأسود

آراس: نهر في كوردستان

شيريهان: ملكة الجمال

جكدار: مسلح
نشتيمان: وطن
آري: ناري
شيرزاد: أسد الحرية
شهزاد: ملك حُر
كومان: ظن
لوند: شاب فتي
سيروان: متنزه
آرام: هدوء
ناندار: كريم
بيدار: متين
سوزدار: وفي
شيندار: حزين
بلند: عالي
همرين: جبل في كوردستان
دلفين: حب القلب
دلبرين: قلب مجروح

دل جان: قلب شاب

دلسوز: قلب واعد

دلدار: عاشق

دلشين: قلب حزين

داخاز: مطلب

دلشنك: قلب أنيق

دلكش: قلب مشع

جومرد: كريم

هوزان: شعر

جوان: جميل

لافا: تمني

آلجي: صانع العلم

روني: ضوء

خناف: قطر الندى

لاوين: وسيم

بهار: ربيع

هافين: صيف

بيرهات: ذكرى
دلخاز: قلب حائر
هلات: شروق
كازين: أين الحياة
كوفان: أحزان
روناهي: ضوء
شيلان: زهرة في حضن الجبل
شلير: نوع من الأزهار
ولات: وطن
نيركز: نرجس
نيجيرفان: صياد
زيان: حياة
ريبر: دليل
ديار: ظاهر
ريناس: دليل الطريق
سردار: رأس الدولة
سامان: أدوات المعيشة

شفان: راعي الغنم

دارين: محبوبة

تاليا: نور الجنة

جوليا: شباب

هشيار: صاحي

دلبرين: قلب مجروح

روندك: دمعة

سوز: وعد

جوتيار: فلاح

سه رباز: جندي

هزار: فقير

سه رخو بوه: إستقلال

شرمين: خجل

دل سوز: قلب مخلص

هيلان: رحيل

سه ركوت: تقدم

هرمان: باقي

كوهيدار: سميع

خبات: نضال

باران: مطر

هيزا: عزيز

جه كر: روح

زانا: عالم

ئيفار: عصر المساء

زين: حياة

دل شاد: قلب فرح

هيمن: هادئ

ريدير: طريق بعيد

ناز: دلال

روناك: ضوء

وهو يجوب جمالية الدروب، يتأمل وجوه الناس اليقظة الممتلئة بإشراقة الحياة، يبلغه يقين أن لا أحد في هولير لا يحب هولير، يمكن لهم أن يختلفوا ويتشتتوا في كل أمر، بيد أنهم عند

حب هولير يلتقون من كل حدب وصوب، ويقعدون على موقف رجل واحد.

يهم الهوليريين أن يعملوا جيداً، أن ينفقوا جيداً، أن يصلوا أرحامهم جيداً، أن يقيموا طاعاتهم جيداً، أن يجامعوا جيداً، أن يأكلوا جيداً، أن يناموا جيداً، يهمهم أن يستمتعوا بيومهم جيداً، ولاتروق لهم كثيراً فكرة ادّخار شيء للغد.

علمتهم هولير أن الغد ضبابي مجهول، وعليهم ألاّ يعقدوا عليه كثيراً من أمل.

يمضون في الطرقات بلياقة بدنية عالية، يستمتعون بذروة درجات يقظتهم دون أن يشغلهم شاغل، كل شيء قابل للوقوع في أي لحظة متوقعة، أو غير متوقعة في عُرفهم، وهذا ما أكسبهم طاقات متدفقة من الشجاعة، والنبل، والكرم.

طرقات هولير لاتسمح لغزو موجات الحداثة أن تجتاحها، وتقتلعها من جذورها، تستقبل حداثة العالم وهي متجذرة في عراقتها، لذلك يرى جمالية البيوت الكلاسيكية، جمالية الأبواب والنوافذ الكلاسيكية، حتى الأبنية الحديثة تراعي حساسية هولير المعمارية، حيث تحتل الحدائق، ونوافير المياه، وبقع الأرض المغروسة بالورود مساحات جيدة، لأن هولير تتحسس من ناطحات السحاب، والضجيج، وازدحام البيوت.

إنها تشرع مساحاتها الواسعة لأبنائها الذين يشاركونها هذا الميل، فلا ينظرون إلى امتلاك أكثر من بيت واحد، وعندما يجنح

أحدهم شطر السعة، يُقال له أول ما يُقال: بيت واحد يكفي.. زوجة واحدة تكفي.. دكان واحد يكفي.. سيارة واحدة تكفي.. هاتف واحد يكفي.. محفظة واحدة تكفي.

* * *

أيها العيد المبارك

أيها العيد المجيد

اقبل دوماً عندما تتفتح زهرة الربيع

وتذوب الثلوج في أعالي جبال كوردستان

تعال دوماً في يومك المعلوم

واملأ قلوب الكورد في شتات الأرض بهجة

تعال دوماً في يومك المشهود

عندما يأتي مارس، وتتربع خيوط شمسه في سهول الكورد

حيث تنطلق صرخة أولى من مولود كوردي جديد، وقد وضعته أمه للتو على ذرات تراب كوردستان الذهبية.

لا تتأخر كثيراً أيها العيد العظيم

إنه يرتجف عرياً

بانتظار أن تقوم بمباركته في صبيحة الواحد والعشرين.

نو روز، يوم جديد يسطع على الأمة الكوردية معلناً فاتحة سنة كوردية جديدة، يتجدد من خلالها الإنسان الكوردي، ويتجدد حلمه الأزلي بإقامة دولته التي تلم شتات الكورد من كل أركان العالم.

امتلأت أمسية النوروز بالشموع على الأسطحة وفي الطرقات، واتجه بعض شباب الكورد إلى الجبال والطبيعة وهم يحملون الشموع ويوقدون النيران، ويكتبون بالنار: آزادي – كوردستان.

يتحول ليل الأمسية المباركة إلى أنوار، وشموع، واحتفالات، ودبكات، يتخيل معها المحتفلون جلاء الليل الذي يخيم على ربوع كوردستان.

يتلهفون لرؤية طلوع فجر اليوم الأول من رأس السنة الكوردية ، ذاك الطلوع الذي يعزز لديهم الأمل بطلوع فجر اليوم الأول من دولة الكورد لتكون دولة قائمة إلى جانب بقية الدول.

نكهة النوروز، رائحة النوروز، أمسية نوروزية بامتياز تجلو أمام ناظرَيه، وفي مشاعره وهو يشهد النوروز الأول في ربوع إقليم كوردستان.

منذ عشرة أيام يستعد الناس لاستقبال هذا اليوم المجيد الذي يشمّون من كل لحظة من لحظاته الذهبية رائحة الحرية.

مرحلة كوردية جديدة تتفتح أمامه ، سفر جديد من أسفار الكورد، ، لكنه في ذات اللحظة تذكر كم أن ضريبة هذا السفر قاسية، كم من أناس تحولوا إلى قرابين من أجل أن تبقى كوردستان حية، ولا تموت.

كم من أناس شنوا حروباً فتاكة، وعمليات إبادة حتى لا يرى

الكورد مثل هذا السفر.

كانت كوردستان تعني المستقبل، تعني شروق الشمس على الظلام الكوردي.

شهر مارس المجيد، شهر الفرح والترح، شهر الضحكات والدموع، كل يوم من أيام هذا الشهر يعبق بذكريات وأحداث ووقائع تضفي هالة من نورانية القداسة على تأويل رمزية يوم النوروز.

حتى بات هذا الحدث الأهم، الأكبر يتمتع بخصوصية قومية لا مثيل لها، ولا يرتقي أي شخص من التاريخ الكوردي لوجه أي مقارنة بهذا الحدث الجوهري الذي لا شبيه له من حيث الشهرة، والإمتداد، وسعة الشعبية .

بات يتأما كيف أن هذا الحدث يتفرد دون غيره من سائر مناسبات الأمة الكوردية بمهمة لم شمل الكورد من كافة أصقاع الأرض ليشهدوا ميلاد سنة كوردية جديدة على صعيد عرفاته.

كيف أن النوروز استطاع أن يستمدّ أهميته القصوى ودلالاته

وقوته مما يتمتع به من رمزية، حتى إذا تواجد الكوردي في ديار يتم حظر الاحتفال فيها، فإنه يرفض الإذعان للأمر، ويتمرد عليه.

إنه يستعد لأي مغامرة ، يعرض نفسه لأي احتمال شرط ألّا يبقى محروماً من وقفة النوروز.

في بهاء يوم من أكثر أعياد أمة الكورد شهرة وحضوراً وتفاعلاً وقوة ونفوذاً وتألقاً وزهوراً، وفي النهاية باءت كل محاولات محوه من الذاكرة الكوردية بالفشل، حيث تم الاعتداء عليهم وهم يقبلون للاحتفال يعيدهم.

عندما ينظر إلى صفحات التاريخ ، يرى بأن هذه الشهر حفل بأكبر قدر من ممارسة الوحشية بحق الإ نسان الكوردي.

كانوا ينصبون له كميناً، وفخاخاً ليصطادوه وهو يُيَمِّمُ وجهه شطر النوروز فجراً، يعتقلونه بتهمة أنه يمارس طبيعة شعوره القومي، بيد أنه كان يزداد، ويزدان إصراراً على عدم السماح لأحد كي يقتلعه من جذوره.

عبر السنوات ، ترسخ لديه إعتقاد أن النوروز يقترن بالقومية ذاتها، وأي مساس بالنوروز هو مساس بالهوية الكوردية، حتى أمسى الاحتفال بالنوروز بمثابة الاستمتاع بممارسة خصائص نفحات المشاعر القومية.

في الماضي كان يتحسر وهو لا يرى أبناء جلدته يعقدون حلقات الاحتفال والرقص في أعيادهم الوطنية على مرآة من

وسائل الإعلام بشكل علاني، حينما كان يرى الناس يرقصون ويعبرون عن مشاعر الابتهاج في مناسباتهم الوطنية والقومية.

الآن تتدفق إلى نفسه مشاعر النشوة وهو يرى المشهد ماثلاً أمام عينيه، حيث يخرج الناس وهم يتأنقون بمفاخر بديع أناقة زي البيشمركة، يتوافدون شطر احتفالات النوروز الوطنية الكبرى ويتشاركون في حلقات الرقص والدبكات التي يزدان بها التراث الكوردي.

وتأتي المغنيات الكورديات لتصدحن بشدو صوتهن العذب بأجمل ما أبدعه الإرث الكوردي من بديع اللحن.

للقيام باستعدادات الاحتفال بالنوروز طعم مختلف ، حيث تقضي التقاليد الكوردية أن يجتمع الناس أمسية النوروز، ويشعلوا ناره كرمز للحرية مثلما سبق لـ «كاوا الحداد» أن فعل.

عندما يتأمل هذا الرمز، ينتابه إحساس بأن الفكرة النوروزية تعتمد في جوهرها على تفكيك مركب الدونية، وتحليل النزوع النرجسي الذي يتطور بالإنسان حتى يتكلل في ذروة مدارجه عندما يبلغ هذا الإنسان مرحلة يستمد فيها حياته من موت مواطنيه كرداً وعجماً.

يتعرض الملك في هذه الحكاية لداء يستعصي علاجه، وبعد محاولات شتى يتوصل أحد الأطباء إلى علاج يكمن في دهن موضع الداء من جسد الملك بمخّ إنسان.

يتخلى الملك «الضحاك» هنا عن كل نزعاته الإنسانية، ليقتصرها في نفسه، ويقبل

أن تستمر حياته كل يوم على حساب حياة أحد مواطنيه.

يأمر حاشيته بتنفيذ هذا الداء على الفور، وتبدأ الحاشية في النزول إلى الطرقات كذئاب مسعورة لالتقاط الناس وجلبهم لقطع رؤوسهم واستخراج المخ ليتم دهن جسد الملك به كي يستمر في الحياة يوماً جديداً.

مع مرور الأيام، ذيعت هذا الواقع في سواد الناس الذين باتوا يحبسون أنفسهم في البيوت، ولا يخرجون إلّا لأمور إضطرارية.

حينها خطر ولأول مرة لشاب يدعى «كاوا الحداد» أن يتمرد على الملك ويسعى إلى قتله كي يتحرر الناس من سجونهم في البيوت، ومن شبح الإحتطاف الذي يطالهم واحداً تلو الآخر، وقد تحول أزلام الملك إلى اشباح تمتدّ أياديهم لتخطف الناس من

الطرقات، ومن أعمالهم، أو بيوتهم.

يجتمع هذا الشاب مع ثلة من الناس، ويخبرهم بأنه عازم للذهاب إلى الملك لإنقاذ حياة مَن تبقى من الناس، وإذا نجحت خطته في القضاء عليه ، سوق يشعل ناراً كي يقدموا جميعاً ويعلنوا الحرية ، وإن لم يشعل النار، فذلك يعني أن أمره قد انكشف، وتم اعتقاله.

عندما فرش الليل جدائله على الطرقات، تهيأ الشاب للزحف شطر القصر، ومع الوقت وحلول السكون، ولج القصر خلسة، حتى بلغ الملك وتمكّن من قتله .

عندئذ خرج، واعتلى موضعاً مرتفعاً وأشعل النار، بلغت الإشارة إلى رفاقه بأن العملية تكللت بالنجاح، فتقدموا إلى القصر معلنين تحرير بلادهم من طغيان الملك.

من ذلك الوقت والكورد يتخذون من هذا اليوم ميلاد سنة جديدة لأنه اليوم الذي تم تحريرهم فيه من الطغيان، وبات هذا التاريخ يشكل منعطفاً انتقالياً أمام الأمة الكوردية، تاريخها ما قبل النوروز، وتاريخها ما بعد.

في أمسية النوروز، قامت آفان باستحمام الأطفال كي لاينام‌وا باكراً، وأحضرت ما جلب من أنواع الطعام والشراب للإحتفال.

سهروا حتى وقت متأخر من الليل حيث نام الأطفال، ولبث برفقة زوجته يحتفلان بهذه الأمسية المميزة.

صعدا إلى السطح يشهدان إنطلاق الألعاب النارية ابتهاجاً

ببدايات استقبال صبيحة النوروز حيث يتحول الظلام إلى ألوان قوس قزحية، وتمتلئ الأركان بأصوات الألعاب النارية، والأهازيج.

في الصباح ، أنهضت الأطفال باكراً وألبستهم مفاخر الثياب التقليدية الكوردية ، ثم راحت تتأنق ببديع أناقة الزي الكوردي الذي يُظهر سحرية أنوثة المرأة الكوردية، إذ لم يكن مسموحاً لهم ارتداء ثياب البيشمركة، أو ثياباً تمثل ألوان العلم الكوردي الذي يرمز إلى قوميتهم التي ينتمون إليها.

بدت الطرقات خالية من حركة الناس، وأبواب المحال مغلقة، حيث استقطبت الطبيعة حشود الناس إلى أحضانها في مولد يوم مشهود يحدث مرة واحدة على رأس كل سنة كوردية.

حتى السيارات بدت نادرة في الطرقات، فاضطر للبقاء نحو نصف ساعة ريثما عثر على سيارة وطلب من السائق أن يوصلهم إلى موضع يحتفل فيه الناس.

قال له السائق بأن الأماكن متعددة، منها بعيدة ومنها قريبة، أما البعيدة فيتعذّر الذهاب إليها بسبب الزحام، ويستحسن أن يذهب إلى مكان قريب من طبيعة كوردستان لأن «القربالغ» ـ الزحام ـ يكون خفيفاً، ويمكن لهم أن يعثروا على سيارة تعيدهم بِيُسْر.

عندما وصل موضعاً من الطبيعة اتخذه الناس للاحتفال، رأى نفسه في حضرة لوحة كرنفالية اكتشف من خلالها كم أن الطبيعة

تتزيا بلمسات جمال خلاّب عندما يحتفل في أحضانها الناس، كم أنها تبدو متألقة ومتأنقة وزاهية بهؤلاء الناس، تبدو بأنها تتفتح حتى تأخذ أوج إشراقتها وهي تحتفل معهم .

ها هي تلقائية الإنسان الكوردي تتجسد بكامل مزاياها أمام عينيه، ها هو يعبر عن مقدار تعلقه بالحرية، ومقدار حبه لطلاقة الطبيعة .

حينئذ لفت نظره رجل عجوز يجلس بجانب خيمة يتحدث مع شاب في مقتبل العمر عن أمثال الشعب الكوردي.

قالت آفان وقد تمهّلت بها قدماها: لنسمع ما يقوله هذا الرجل .

تقدم إليهما مستأذنا إذا كانا يسمحان لهم بمشاركتهما الجلوس.

حينها نهض الرجلان ورحبا بهم بحرارة.

بعد جلوسهم بقليل، خرجت امرأة من الخيمة وراحت تتبادل القبلات مع آفان مرحبة بها وما لبثت أن شاركتها الجلوس.

قال الرجل الذي كان يتحدث عن الأمثال الشعبية عند الكورد: من أين أنتم ؟

قال: من سورية.

كرر ترحابه مبتهلاً إلى الله أن يطفئ النار التي نشبت فيأرجاء ديارهم ويعيدهم إليها بسلام.

ثم عقب الرجل الآخر: ما تمرون به كاكه، مررنا به من قبل، الإنفلات الأمني أكثر صعوبة من الحرب، في ظل الإنفلات الأمني يصبح كل شيء مستباحاً، أنا زرت سوريا منذ عشرين سنة، كانت جميلة والحياة فيها غير مكلفة.

بعد قليل جاءت امرأة أخرى حاملة سفرة عليها بعض الفاكهة والحلوى والمكسرات.

عاد الرجل إلى حديثه عن الأمثال وأهميّة دلالتها بالنسبة للمجتمع الكوردي، وهو يصغي إليه راوده إحساس بأن ماثورات المجتمعات ما هي إلا ملخصات تعبر عن كينونتها.

قال الرجل بأن الكورد أنتجوا منظومة من الأمثال التي بقيت في دائرة الشفوية، ولم يتم تدوينها :

عندما نردد بعض الأمثال الكوردية التي يتناقلها المجتمع الكوردي شفاهاً، تجلو فيها خصائصه، حيث يمكن لسامع هذا المثل أن يلتمس شيئاً من التعرف على طبيعة ومقومات هذا المجتمع بصفة عامة.

هذا المثل الذي يبيّن تشابه الكرد أينما كانوا. ثم استأنف الرجل يقول:

الكردي الذي يعيش في باريس، يشبه الكردي الذي يعيش في قامشلو، وهو يشبه الذي يعيش في أصفهان، وهو يشبه الذي يعيش في ماردين، وهو يشبه الذي يعيش في هولير.

ثم تناول حبة موز وبدأ يقشرها مردفاً: يقول مثل كوردي

«أن يأكلك أسد أفضل من أن يحتال عليك ثعلب»

في هذا المثل يظهر أن المجتمع الكردي يدعو إلى اليقظة، وألاّ يكون المرء مغفلاً، فيقع ضحية غفلته، ولذلك يدعو إلى المواجهة حتى النهاية دون الركون إلى الياس.

كذلك يبيّن هذا المثل بأن الحياة تخبئ النقيضين، وعلى الإنسان أن يدرك ذلك ولايعتقد أن الحياة ستمضي به على وجه واحد .

يقول مثل آخر: **«ما من أحراش دون ثعلب يعيش فيها».**

وفي ذات المفهوم يقول مثل آخر: **«الدنيا ملك الشجعان».**

يتغلغل المثل الشعبي الكوردي في بنية المجتمع ويعطي صورة جلية عن شخصية الإنسان الذي واجه صعوبات شتى عبر مختلف الأحقاب الزمنية، واستطاع أن يواجه ويثبت حضوره وتواجده.

ثم أردف الرجل يقول وهو ينظر إلى الشاب : هناك مثل آخر يدعوهم للتفاعل مع الواقع:

«القلوب الرقيقة لا تبلغ الآمال».

أمّا عن أهمية وحدته وتماسكه يسري مثلنا الشعبي القائل:

«اتفاق النمل يجرّ الجبال».

ذلك أن أشد ما يلقاه الكورد هو من هول التفرقة، وإنهم لن يكونوا أقوياء بأي وجه إذا تشتت بهم منعرجات الطرق، وعندما يتكاتفون معاً، فقوة العالم لن تجسر على قهرهم.

يروي مثلنا بأن الإنسان الكوردي صاحب موقف، ويعزز هذا الإنتماء لديه المثل القائل:

«كن ديكاً ليوم واحد، أفضل من أن تكون دجاجة لسنة كاملة».

أمثالنا هي مدرستنا الشعبية، تعلمنا الحكمة، وتعزز في نفوسنا خبرات وتجارب أسلافنا، إنها بمثابة منارات تنير لنا دجى الليل.

يتدخل مثلنا الكوردي في مختلف شؤوننا الحياتية ويحضنا على النشاط والعمل.

يوصينا قائلاً:

«تراب العمل ولا زعفران البطالة».

«إن لم تكن ورداً، لا تكن شوكاً».

«لا تستخدم يدي في قتل الأفعى».

«كيس اللصوص مثقوب».

«من يجلس قرب الحداد، يعرض نفسه لشرارة النار».

هذه الأمثال بمثابة ملخصات إستطاع الإنسان الكوردي أن يستخلصها من وقائع حياته وتجاربه:

«الأعور بين العميان ملك».

«ابن آدم مثل النمل ضعيف جبار».

«أنا أمير وأنت أمير.. مَن يسوق الحمير».

«البيت الضيق يسع ألف صديق».

«لا جبال عالية بلا ثلج، ولا وديان عميقة بدون ماء».

هناك أيضاً بعض الأمثال التي ترد على شكل إشارات وتحذيرات مثل:

«قمم الجبال لاتلتقي، لكن العيون تلتقي».

«مسد القنفذ على أشواك فراخه فقال: كم هي ناعمة».

«إذا كان اللص من أهل البيت، فلا داعي لغلق الأبواب».

«هذا العجين يحتاج إلى ماء كثير».

«عندما يصيح الديك في غير أوانه، يُذبح».

«لو لم تمد يدك إلى الموقد، لما احترقتْ».

«اعط الخبز للكلب، ولا تعطه لناكر الجميل».

ثم نظر إلى آفان وقال: نتعرف على منزلة المرأة أيضاً عن الكورد في هذه الأمثال يا بنتي لأن المجتمع الكوردي يكن احتراما خاصاً للمرأة التي شاركته معاناة الحياة ومشاقها، وصبرت على الأهوال حتى توجها الكوردي بـ أميرة الصبر والجلد، جاءت الأمثال منبهة إلى مفهوم الإنسان الكوردي للمرأة، مبينة منزلتها الرفيعة، حتى قال في حقها:

«المرأة دعامة المنزل».

«المرأة الفاضلة هبة عظيمة، والمرأة السيئة قيد ثقيل».

«المرأة حصن، والرجل سجين».

«الرجل نهر، والمرأة بحيرة».

«الرب خلق المرأة، والمرأة صنعت الرجل».

«لاتنظر إلى المرأة، بل انظر إلى أقربائها».

«المنزل الغني بالمال يمكن هدمه، أما المنزل الغني بالأبناء لا يمكن هدمه».

«المنزل الذي فيه طفل لا يدخله الشيطان».

«الأطفال فاكهة المنزل».

لم يكن يعلم بأنه سيلتقي بأناس يجسدون قمم الإرتقاء في مدارج النزوع الإنساني، هكذا ينتابه شعور مطلق بالأمان وهو يتعرف على طبائع ونزوعات الناس الذين لا يعنيهم شيء بقدر ما يعنيهم أن يستمتعوا بممارسة مزايا عذوبة مشاعرهم الإنسانية ورهافتها.

باتت الإقامة في هولير تقدم إليه مذاقاً خاصاً للحياة.

كل شخص يسعى إلى تقديم حالة إنسانية حتى من خلال كلمة يلفظها، وهذا ما لفت نظره بقوة وهو في ظهراني إيقاع هذا المجتمع.

أتاحت له الشهور الماضية أن يلتقي بأناس تميزوا عن سائر الناس الذين التقى بهم، أحياناً يبدو له أنه ينظر إلى قديس ولذلك كانت الدموع تُذرف من عينيه وهو يكتشف قوة إنسانية الإنسان في هذه البقاع وقد تحولت أمام ناظرَيه إلى منارات إنسانية علمته كثيراً.

حينها تشكل لديه اعتقاد بأن تجربة التعرض لأفتك أسلحة الدمار الشامل بحق الطفل الكوردي قبل كل شيء، أسست لحساسية ثقافية إنسانية تمتعت بسعة أفقها، أسهمت بفعالية بالغة لحساسية ثقافية وإنسانية في المخيلة الطفلية الكوردية، هؤلاء الأطفال الذين تحولوا إلى آباء، وإلى طيف إجتماعي كوردي

معاصر.

وهو يتأمل الناس يحتفلون بهذا العيد الرمزي للحرية، تناهى إليه حدث قريب

وقع منذ أيام عندما فرح الكورد في العالم كله فقط لأن البعض اعترف بأن الأطفال والنسوة الذين تعرضوا لعمليات الأنفال وأفتك الأسلحة الكيماوية كانوا ينتمون إلى الإنسانية، وأن ما مورس بحقهم هو جريمة بحق الإنسانية.

حينها أدرك قيمة أن يقدّم الإنسان ورداً لمن يقذفه بالشوك، وهو يرى أن التاريخ البشري لا يسجل أن شعباً تعرض للتنكيل، والمآسي، وألوان القهر كما تعرض الشعب الكوردي عبر مراحل التاريخ، ولا يسجل هذا التاريخ أن شعباً كهذا استطاع أن يبادل البشرية قاطبة بصفحات التسامح، وتقديم كنوز الفكر، وجواهر الآداب، ولآلئ الفنون، ومتاحف الآثار، ونماذج راقية في تقديم مفاخر شخصيات ومواقف إنسانية وسياسية.

إنه أكثر شعوب الأرض تعرضاً للسطو على ميراثه الإنساني، وما يجعله ينظر بدهشة هنا أن الكوردي ما زال مصراً على الركون في ظلمته، في شبه عزلة صوفية عن نسيج العالم.

يومها قال لزوجته:

هكذا دوماً، يصل الكورد متأخرين.. أعني: متأخرين جداً.

قالت: ربما لأنهم نهلوا الكثير من الصبر، ربما لعمق الحكمة، ربما لطيبهم الزائد عن اللزوم.

لكن، ذلك أفضل للمرء من ألاّ يصل أبداً، وكم من أناس لم يصلوا البتة، كم من أناس لبثتْ قضاياهم في دياجير الظلمات.

قال: رغم كل تلك الأهوال التي لحقته ما يزال يتحصن بالصبر، بروح الحكمة، بجبل الطيب الكردي.

يلحقه الأذى حتى في ركونه تحت الأيدي، يقبل ألاّ يتحدث لغته، يقبل أن يهجر تقاليده، أن يتجنب تسمية أطفاله أسماءه في كثير من الديار، بل يحظر عليه ارتداء حتى ثوب يرمز إلى علم هويته القومية فقط لأنه طيب للغاية و ـ لاظهر له ـ .

لقد سطوا على أراضيه، ولم يفعل العالم شيئاً.

قتلوا أطفاله بقسوة، أهانوا شيوخه، اصطادوه في الطرقات، في الخيم، في البيوت بدون أن يرتكب أي جناية سوى جناية أنه كوردي.

قالت ـ وقد تقدمت بهم خطواتهم صوب حلقة دبكة من التراث الكوردي ـ : انفجرت السيمفونيات الكوردية كبراكين تدوي في عمق الإنسان.

قال: بيد أن الحصار كان أكثر تفاعلاً للحد من سعة الانتشار.

ثمة موسيقى كوردية بعذوبة موسيقا «نيكوس» بعبقرية موسيقا «باخ» ثمة أساطين، ثمة ملاحم أدبية وفكرية وفلسفية وإنسانية اغتنى بها التراث الإنساني.

دوماً الخوف ياعزيزتي من ظهور الكوردي في الواجهة، لأن هذا الظهور بمثابة خطوة أولى للمضيء شطر بلوغ حقه كإنسان في إقامة دولته، في انتشار لغته لتغدو لغة إلى جانب لغات العالم الحية، لترجمة آدابه، لظهور عبقرية الكورد عبر العصور البشرية، حينها يكون عيب على الضمير الإنساني أن يستكثر عليه حتى ما يمكن تسميته بحكم ذاتي في خيمة متواضعة من هذا العالم تعود أحقيتها إليه عبر التاريخ، وكأنها جريمة عظمى يرتكبها الكورد.

هنا.. في كوردستان يملك الكوردي أن يتحدث لغته، يملك أن يغني أغنياته، يملك أن يُظهر حجم طيب الإنسان الكوردي النبيل الذي يذهب مع السلم إلى آخره.

يتحدث وزوجته تنصت إليه:

أجل ياعزيزتي هناك أناس في هذا العالم ما زالوا حتى الآن

يخططون لإخراج الكورد حتى من إقليمهم الصغير المتواضع هذا، ودفعهم للتشرد أسوة بإخوانهم في الأشطار الأخرى من كوردستان، من جهة، ومن جهة أخرى كي لا يكونوا عوناً لبعضهم بعضاً في أزمات الزمان كما هو واقع معنا الآن.

هناك أناس يخططون لأن يحرضوا الكوردي على الكوردي حتى يستمتعوا بالتفرج عليه وهو يفتك بعضه بعضاً، يراه وهو ينهار من أعلى شموخه على مرآة من العالم، بيد أن التجارب كانت له بمثابة حصانة جعلت هؤلاء يركنون إلى هوة ياس.

إنها المرة الأولى في التاريخ التي وقف فيها المجتمع الكوردي هنا أمام امتحان إنساني قومي تاريخي تجاه أكراد لاذوا بهم من الجناح الغربي لكوردستان حاملين فلذات أكبادهم من هول حرب أهلية فتاكة بأوجه مختلفة.

وقف الكورد هنا إلى جانب مؤازرة أخوتهم وبني جلدتهم وقومهم ولسانهم، وقد لاذوا بأرض كوردية يحسبون أنفسهم مواطنين فيها، لا لاجئين، ولعل أكثر ما يثير استياءهم هو شعورهم بأنهم لاجئين.

دعتهم إحدى العلائلات لتناول بعض المشاوي، فلبوا الطلب مستمتعين بطقوس نوروز، حينها قالت آفان بسخرية: أرتنا ما تم اصطلاحه بثورات الربيع العربي أن غالبية هؤلاء الذين وضعوا

مخططات وقوانين ومراسيم لاضطهاد الكورد بحجة الخوف على البلاد والعباد، كانوا أول مَن أسهم في إلحاق الأذى بالبلاد والعباد معاً.

ثم أردفت تقول:

أثبتت التجربة أن الذي لا يحترم بلاد غيره، لايحترم بلاده،

الذي لا يغير على بلاد غيره، لن يكون بوسعه أن يغير على بلاده،

الذي لا يحترم خصائص القوميات، لن يكون بوسعه أن يحترم خصوصية قوميته.

لا أعرف ما الذي يجيز للإنسان أن يسلب إنساناً آخر لغته، خيمته، إرثه، إنتماءه، وكيف يصدق أنه يلقى إحترام الآخرين، بل حتى إحترام زوجته، وولده، ونفسه.

صمتَتْ قليلاً ثم أردَفَتْ تقول: لعلّ من أقوى إيجابيات ثورات الربيع العربي أنها أسقطت أوراق هؤلاء، وجعلتهم كشجرة ساقطة الأوراق في مهب ريح آخر خريف.

خيّم صمت، وراح يفكر بأن هذا كله قد لا يهم كثيراً بقدر ما يهم المستقبل الذي يشرف، أو يتهيأ الكورد لفتح باب جديد إليه، ومد خطوة أولى شطر المدرج الأول نحو عصر يأملوا أن يكون أقل طغياناً، أن يرتقي درجة شطر شيء من طبيعة وتلقائية

الإنسان الطبيعي.

الآن.. بعد سنوات عجاف طويلة، يقر البعض بأن ما تعرض له الكورد من عمليات سحق و«تطهير» عرقي، وإبادة جماعية، ومحاولات محوه من الوجود من خلال أفتك أسلحة دمار شامل يُعد جريمة ضد الإنسانية.

رأى أن هذا الموقف يحتمل أوجهاً من التحليل، فهو في وجه يشير بأن الكوردي يطلب من العالم أن ينظر إليه على أنه إنسان، وأن الأطفال الذين قضوا بالأسلحة الكيماوية وإن كانوا أكراداً بيد أنهم كانوا ينتمون إلى الإنسان، وأن كرديتهم لا تُسقط عنهم مزايا إنسانيتهم، وأن الذين نجوا وقد لاذوا أفواجاً وجماعات بصقيع العراء،

لهم حق في أن يلبثوا أكراداً، ويزدادوا ثباتاً في كورديتهم، وهذا كل شيء.

هاقد ظهر مفهوم الجينوسايد الكوردي وهو في كوردستان،

وهي كلمة مخيفة بالنسبة إليه، تعني فيما تعنيه الإبادة الجماعية لمجموعة إنسانية لأسباب شتى، تتألف من مقطعين، الأولى«جينو» ـ نوع ـ مشتقة من اللاتينية genus جيناس، والثانية ـ مذبحة ـ caedes كايدس.

أثبت له ذلك أن لا أحداً يمكنه العيش في منأى عن حميمية العائلة الإنسانية، ومشاعر التكاتف الإنساني التي لاأحد في هذا العالم يمكنه أن يكون بغنىً عنها.

وليس بوسع أحد بأي وجه أن يسعى إلى فصل التاريخ الكوردي من سيرورة الأحداث والوقائع الزمنية، لأنه يشكل صفحة من دفتر التاريخ الإنساني.

هذا الإنسان الذي ما يزال يعاني الشتات في الأرض دون أن يستقر في دولته رافعاً علم هذه الدولة في ربوع الدولة الكوردستانية التي تلم شتات االكورد، فتجعلهم أكثر تركيزاً في كورديتهم، وبالتالي يعطون صورة جلية عن خصائص ومزايا الأمة الكوردية.

ثم راح يتأمل كيف أن هذا الشتات أدى إلى تشتت الإمكانات الكوردية في شتى المجالات الإبداعية، والفنية، والاقتصادية، والسياسية، والاعلامية، والاجتماعية، وفي كثير من الأحيان تجردت من فحوى كورديتها، حيث لحق الويل بالكورد لا لشيء سوى لأنهم كورد، ودوماً كانوا يقدمون لآلئ وجواهر ونفائس

الإبداع إلى العالم دون أن يستسلموا، أو ينتابهم يأس.

عندما يستذكر كل تلك الصفحات التي يندى لها جبين الإنسانية، تنتابه حالة مقت من كل شيء له صلة بالسياسة، هذه السياسة التي تبرر لنفسها حتى قتل الأخوة، بات يشعر بشيء من القرف وهو ينظر إلى ديكورات هؤلاء المقيتة التي تهيئ لهم أنهم تعالوا عن الناس، وفي سبيل ذلك يلحقون الويلات حتى بشعوبهم.

حينها بدأت تتبيّن له مرارة حقيقة عدم تأهل هؤلاء لمراحل القيادة الفعلية، لكنه عاد وقال لآفان: علينا أن نكون سعداء، ونحن نرى بأن الكورد هنا استطاعوا أن يصلوا إلى نتيجة مفادها أن لا أحد متأهل لتمثيل المجتمع الكوردي أكثر من سواد شعبه، وأطفاله الذين قضوا تحت وطأة الغازات السامة ، وهو لا يسمح لأحد بأن ينصب نفسه سيّداً عليه.

هكذا انفجرت مليونية الكورد المزلزلة سنة ١٩٩١، كإشارة بأن هذه المليونية متأهبة للانفجار في أي لحظة، وفي وجه أي جهة يمكن لها أن تشكل تهديداً لأمنه القومي.

هنا.. في هولير أمكنه التعرف على الملامح الكوردية عن قرب أكثر من أي بقعة أخرى من العالم، ذلك أنه لأول مرة يلج أبواب مدينة كوردية خالصة، وهي أول مدينة كوردية تتمتع بمزايا كورديتها ضمن مساحة الإقليم الكوردي الذي يتألف من ثلاث مدن رئيسية هي العاصمة هولير ـ سليمانية ـ دهوك.

هنا.. في هولير ـ مدينة الكورد الروحانية بامتياز ـ حيث تتيح له أن يستمتع بقيمة عذوبة وعفوية الجمال الكوردي سواء في الإنسان، أو في الطبيعة، أو حتى في عذوبة إيقاع الحروف الكوردية التي هي أعذب من كل ما استمع إليه من موسيقى.

ليس بوسع المرء هنا سوى أن يزداد يقيناً بأن الكورد هم من الشعوب العظيمة في هذا العالم، ومن الشعوب الأكثر صبراً وأكثر حكمة، وكذلك الأكثر تعرضاً للقسوة وألوان الاضطهاد على مدى مراحل التاريخ الإنساني، و ما زالوا حتى الآن يقدمون الزهور للعالم، يقدمون إبتساماتهم، وتسامحهم العظيم، وموسيقاهم، وآدابهم.

لقد أعطوا العالم كل شيء دون أن يعطيهم العالم شيئاً، وما زالوا يصرون كي يقدموا للعالم كل شيء وهم يوقنون أن العالم لا يقدم لهم شيئاً.

استطاع الإنسان الكوردي أن يوظف هذه القسوة اللا إنسانية التي تعرض لها، لتعزز في كوامنه قوة نزعة إنسانية جديدة يتحصن بها.

جعلته في حالة تميز إنساني بالنسبة لكل شيء، وما لبثت أن قفزت تلك الحمامة إلى مخيلته حينما كان يمشي في «البازار» في الشهر الفائت، وقد طارت حمامة لتحط في منتصف الطريق، حينها وقف يتأمل ما سيحدث، توقفت السيارة الأولى في أرضها

منتصف الطريق، وقد مشت الحمامة حتى استقرت تحت جسم السيارة بالضبط، توقفت السيارات الأخرى التي تقف خلفها حتى أصبح ما يشبه أزمة سير، ورأى رأي العين أن السائق نزل من سيارته وتحايل على الحمامة بمحاولات شتى وهي متشبثة بالبقاء تحت السيارة، وعندما علم السائقون ذلك، انتظروا حتى نجح الرجل أخيراً في إخراج الحمامة.

لم يدعها على الرصيف ويمضي، بل حملها وأطلقها في الفضاء لتطير، ثم مضى وتبعته السيارات الواقفة.

هه ولير مدينة الحب والحمام، حيث تزدان حدائقها وبيوتها وطرقاتها بطيور الحمام، وهذا يرمز إلى حجم قوة السلام الذي يتطلع إليه سكانها.

هكذا عندما استأجر البيت، رأى حمامتين في عش، وكأن عش الحمام هو ركن أساس من أركان أي بيت هوليري.

يتأمل جمالية الرقص الكوردي على إيقاع الطبل والزرنة الذي تؤديه صبايا كورديات وهن في أوج أناقة زيهن الكوردي الأصيل.

و تأتي المغنيات الكورديات لتصدحن بشدو صوتهن العذب بأجمل ما أبدعه الإرث الكوردي من بديع اللحن في يوم أكثر ما تتجسد فيه مظاهر الكرم الكوردي، حيث رائحة الشواء تملأ الطبيعة برمتها، وتحضر كل ألوان الطعام والشراب والفاكهة والمكسرات

في موائد مفتوحة دون حرج، إذ يمارس الكوردي بطلاقة عفوية طبيعته الكوردية.

هنا يمكن أن يجلو للناظر أن لا كوردي لا يعيش حالة بطولة حقيقية في داخله.

كل شخص هنا هو بطل في شخصيته، بطل في مهنته، بطل في تواصله الإجتماعي، بطل في كورديته.

من الصعوبة أن يجد المرء هنا أناساً مهزومين، أو عدميين.

لقد أثبتتهم المأساة في صميم واقعيتهم، رسخت أقدامهم بقوة في تربة أرضهم.

*　　*　　*

انفرجت أساور رموش عينيه المثقلتين بتؤدة، إثر رفيف لمسات ناعمة على مساحة جبهته.

شهق نفساً بعمق، وما لبث أن انتفض جسده ليستوي قاعداً، بيد أن وخزة ألم شديدة أعادته إلى حيث ماكان عليه مستلقياً بمفاصل مفككة على ظهره في السرير.

ثم ما لبثت أن صدرت من صوته الكسير ترنيمة مرتعشة:

هه

هـ

هـ

و

و

ل

ل

ي

ي

ر

ثلاثة أيام مضت عليه وهو مستلق على ظهره في السرير بسبب ألم حاد اجتاح عموده الفقري بشكل مباغت، ولم يعد قادراً على المقاومة رغم أن آفان أحضرت له بعض العقاقير المسكنة ذات المفعول الجيد.

عندها لم يبق أمامه غير أن يعرض نفسه على طبيب، فراحت زوجته تحضر سيارة أجرة، وشرعت تعينه برفقة السائق حتى جلس في المقعد الأمامي.

صعدت مع الأطفال، وانطلقوا جميعاً إلى حيث عيادة طبيب اختصاصي.

عندما أجرى الطبيب كشفه الأولي، نصح أن ينتقل إلى مشفى خاص لأن حالته تستدعي إجراء عمل جراحي فوراً، وأي تأخير سيفسح المجال أمام سعة تمكين الحالة من مفاصل الظهر بشكل جيد، حتى تأخذ إمتدادها، وتستفحل بمفصل الظهر بشكل جيد،

وتتطور إلى «ديسك».

ثم قال وهو يتجه بالكلام إلى زوجته: العمل الجراحي الذي سأجريه ـ مدام ـ من شأنه أن يخفف عليه حدّة الألم من جهة، ويحد من رقعة اتساعه من جهة أخرى، ثم تأتي الأدوية لتتفاعل في عملية شفائه واجتثاث مسببات مقدمات «الديسك».

أمام ذلك لم يبق أمامه سوى أن يتجه على الفور إلى المشفى الذي سيوفر له حالة جيدة من التهيئة البدنية والنفسية حتى صباح الغد، حيث سيجري له تحليلات لازمة، وعندما تحل الساعة التاسعة، سيكون هناك، وسيباشر في إجراء العملية في التاسعة والنصف، وستستغرق معه نصف ساعة فقط.

ثم قال مطمئناً إياه: على العموم أنا لا أُسمّي هذه عملية بمعنى الكلمة، يقولون عنها عملية لأنها تدور ضمن عمل جراحي، تماماً كخلع السن، أو إخراج معدن انغرز في الجلد.

هذا الإجراء بتقديري لايتمتع بأكثر من نسبة الربع من العملية الجراحية المتكاملة.

قال: لكنني لاأطيق البنج، ولم يسبق لي أن جرّبته.

قال مبتسماً: ألم أقل لك بأنها ليست عملية متكاملة، لذلك حتى البنج يمكن ألاّ يكون متكاملاً، لو شئت سأقوم ببنج موضعي يشمل النصف الأسفل من جسدك فقط.

ثم أعطاه إحالة كي يتم بموجبها استقباله.

عند وصوله، استقبله المشفى، وأخذه أحد العاملين إلى حيث الغرفة التي يقيم فيها، ويتلقى فيها علاجه.

في المساء نصحته إدارة المشفى ألاّ ينام الأطفال هنا تجنباً لأي فيروس يمكن أن يصيبهم بسبب عدم تمتعهم بمناعية كافية مثل الكبار، ولكن يمكن لزوجته أن تنام في ذات الغرفة إن شاءت.

عندئذ اتفقا أن تذهب بهم إلى البيت، وتأتي صباح الغد.

كان الطبيب دقيقاً في موعده، حيث أدخله في الموعد إلى غرفة العمليات، وعندما رآه مرتبكاً بعض الشيء قال: إنها بمثابة نزع شوكة من جلد.

قال: لكنني أتحسس من البنج الذي لم يسبق لي أن جرّبته.

قال: لا توجد مشكلة عزيزي، يمكنني أن أجريها بتخدير موضعي يشمل النصف السفلي من جسدك فقط كما سبق وأعلمتك إن رغبت في ذلك.

قال: نعم أريد التخدير الموضعي.

هزّ الطبيب رأسه وهو يقول:

سنتبادل أطراف حديث، وقبل أن ننتهي، ستكون العملية انتهت، هه عزيزي، هل أنت مستعد الآن، وإن لم تكن مهيئاً، يمكن أن نؤجل ذلك إلى ساعة، أو ساعتين، أو إلى المساء.

ما يهمني أن تبقى مهيئاً للعملية كما كنت قبل أن تدخل هذه الغرفة.

قال: لا شيء، فقط لم أكن أتخيل بأنني سوف أدخل ذات يوم إلى غرفة عناية مشددة.

قال: لا مكان أأمن من غرفة العناية المشددة في العالم كله، هنا كل شيء يمضي بشكله الطبيعي بحسب دبدبات تظهر على الشاشة.

الآن لدي إشارة بأنك من الناحية الصحية مهيأ تماماً لإجراء أصعب عملية يمكن أن تُجرى لإنسان.

كل شيء على مايرام، ما يلزمني فقط هو أن تستسلم لحالة الاسترخاء.

قال: هل يمكنني الاستعانة بموسيقى يمكنها أن تعينني على ذلك، على العموم هي موجودة في جهاز موبايلي عند زوجتي

التي تنتظر في الخارج.

عندذاك طلب الطبيب من أحد معاونيه أن يحضر جهاز هاتفه، فتناوله وراح يضع على مقاطع من موسيقا المونامور.

بدأت الموسيقى تفعل فعلها منذ شذراتها الأولى، حيث أحس بحالة من الإسترخاء البدني والنفسي إلى درجة أنه بات مستعداً لإجراء العملية دون بنج.

أجلسه الطبيب على السرير، ثم بدأ الممرض يحقنه حقنة البنج الموضعية في ظهره.

تمدد على بطنه والموسيقى بدأت تُخرجه لمسة لمسة من المشفى كله ليحلق على أجنحتها في فضاءات عالم هولير، كم تمنى فيما لو كانت بجواره، فيما لو أبقى ممسكاً بكفها لحظات إجراء العملية، لكنه استبعد الفكرة لأنه لايريد أن تراه هولير في وضع كهذا، هولير التي تريد دوماً أن تراه قوياً، تراه واقفاً على قدمية كما عهدها به.

علت غصة إلى حنجرته، وفاضت دموع من عينيه، بيد أن الطبيب بدا منهمكاً في عمله يفصلهما الحجاب الذي وضعه بينهما تجنباً من إلقاء أي نظرة مفاجئة منه.

بدت لحظات الاسترخاء تتحول إلى نشوة رغب فيها أن يمتد به الوقت في لحظات بدت غارقة في استثنائيتها قد لا تتكرر مرة أخرى، بدا له كم أنه محظوظ بهذا المرض الذي بدا سخياً، ومدّه

بطاقة عذبة من رهافة المشاعر نحو هولير، لم يكن يعلم أنه متعلق بها بكل هذه الشفافية، بكل سحرية العنفوان هذه.

عندما تناهت عبارات الطبيب إلى سمعه: حمداً لله على سلامتك عزيزي.

أحس في تلك اللحظة بمدى قسوة وجبروت الطبيب الذي سيجبره على الخروج من محراب أرق وأعذب لحظات العمر الذهبية.

هه

هـ

هـ

و

و

ل

ل

ي

ي

ر

علقت نظراته بها وهو يدندن بأعذب إيقاع حروف الأبجدية الكوردية.

ابتسمت متمتمة: أحضرني شوقي كي أطمئن عليك

عبارتها هذه جعلته يشعر بنشوة، وهي التي ضعف ملوك الأرض أمامها، هل يُعقل أنها تبدو ضعيفة في مشاعرها نحوه.

وما عزز هذا الشعور لديه أنه تخيل بأنها ترددت حتى آخر ما يمكنها أن تستطيع بحيث أتت إليه وهو في اليوم الثالث والأخير في المشفى كون أخبره الطبيب أن بإمكانه الخروج صباحاً إلى البيت.

رفع كفيه يخفي الدموع التي انبجست من مقلتيه، وخيمت عليهما مأذنة سكون بدا سرمدياً، تتأمله وهي تخفي دموعاً بدأت تغالب بؤبؤتَي عينيها.

آلمها ذلك وهي ترى نفسها على مشارف الوهن لأول مرة عبر عمرها المديد.

تذكرت جبروت الطغاة الذين بدوا أضعف خلق الله وهم يرضخون، ويقبلون قدميها سعياً لمرضاتها.

تذكرت جبروت هولاكو وهو في أوج طغيانه ودمويته، وقد بدا أمامها واهناً يطلب رضاها بركبتين مصطكتين.

حينها أدركت لأول مرة أن لا جبروت يغلب جبروت الحب،

وأنها تسببت بشكل، أو بآخر في إلحاق الأذى بكل أولئك الذين تعلقت شغاف قلوبهم بها، وأقبلوا من مشارق الأرض ومغاربها كي يظفروا بنعيم إلقاء نظرة واحدة إلى سلطان جمالها، أن ينعموا بقضاء ليلة عمر استثنائية واحدة في ربوع دوحة سمرها، ينتعشوا باستمتاع لذة النظر إلى خصلات شعر مليكتهم، بيد أنها كانت دوماً تأبى أن تمنحهم الأمان، تأبى أن تكون مخلصة لهم، حتى ملوك وأباطرة الكورد، تخلت عنهم عندما رأتهم على معارج وهن، على أرصفة شتات، فكانت تنظر إلى انهيار إمبراطورية الميديين وهي تتداعى على مرآة من عينيها، هزيمة الملك الميدي كيخسرو، إنهيار مملكة مادستان، زوال إمبراطورية الحثيين وهي تتلاشى رويداً رويداً.

كانت دوماً محظية مَن يبلغها بقوة السيف، يبذل في سبيلها الغالي والنفيس، حتى تتنازل وتتوجه ملكاً على عرشها، وهو يقلدها بنفيس الجوهر.

الآن ترامى إليها أنها تدفع ثمن كل ذاك العناد، وهي تقع في مكامن شباك خفقات القلب، تترك محجرها النفيس الذي لم يسبق لها قط أن تركته، وتجري بهدي خفقات عشقها، أهو عشق حقاً يا هولير؟

كم يرعبكِ ذلك، وأنت أكثر مَن تعلم نتيجة هذا الهيام، لكن رغم كل ذلك فإنك يا هولير تشعرين لأول مرة بأنك أنثى، تمارسين لأول مرة مزايا أنوثتك وأنتِ تنظرين إليه وهو يخفي

وجهه براحتي كفيه كي لايبدو أمامك واهناً وهو يسكب الدموع

مدراراً.

إنه الحب يا هولير، نظراته تفضحه رغم أنه يكابر، رغم أنه ينتقي الكلمات التي توحي لك بأنه متعلق بزوجته.

امتدت أناملها تداعب ثنايا شعره بحنو وقد صدرت منها دندنة شجية: أريدك أن تبقى في قمة شموخك.

ثم قالت: تكمن السعادة الحقيقية في ثنايا تلك اللحظة التي تشعر فيها بأنك بطل.

رفع رأسه وهو ينظر إلى عينيها النسريتين وتمتم: لكن المرض هدّني.. ياه، كم أنا مُتعب، أكثر تعباً من مُتعب.

ترامى صوتها إلى مسمعه بهمس وكأنها تحدّث نفسها في حوار حميمي بالغ الحساسية: هنا مفاصل مكمن القوة !

أدهشه قولها، وفي لحظات تحولت نظراته إليها إلى نظرات إستفسارية، فقالت : إنها فرصتك الثمينة كي تستخلص جواهر رعشات اللذة المباركة من مفاصل هذا الألم.

افتر ثغره ببسمة، وقد شعر بأن قلبه استمد قبسة نور من منارة حضورها.

تتمتمت على شفتيه الكلمات: إنكِ تبثين الأمل إلي ، ثم تدرّجت به البسمة والكلمات تتدحرج على لسانه : الآن بلغتني إشارة أولى عن سر حفاظك بوهج حيوية الصبا.

ثم هتف وهو ينظر إليها بعينين وسيعتين: أنتِ يامولاتي تمنحين الرحيق لبراعم الأزهار.

قالت: ذات يوم قلت لآشور بانيبال: ما الذي جعلك تترك الدنيا قائمة، وتأتي إليّ ؟

قال: لأنني هنا فقط أشمّ رائحة الحياة.

قلت له: لكنني لن أدوم لك، ولا لأبنائك.

أجاب وهو يحاول مقاومة مشاعر الهزيمة في حضرتي: سأسعى إلى ذلك ما استطعتُ إليه سبيلاً.

ثم قال بزهو كما لو أنه ديك رومي ـ ضحكت وهي تقول ـ : لاأعرف حينها لماذا تخيلته ديكاً رومياً منفوشاً ـ : الموت في سبيلك ياتاجي النفيس، حياة.

عبارته هذه تركت لدي أثرها حتى اليوم، ولم أخبر بها مخلوقاً قط غيرك.

كنت ألمح معالم الانشراح بادية حتى على نبرات صوته وهو يحب أن يدلعني بـ «أربائيلو».

كان بانيبال شبيهاً بالملك الآشوري الرقيق دان الثالث، كانوا

عندما يريدون الذهاب إلى حملاتهم العسكرية، لم يقدموا على ذلك قبل أن تحجني جيوشهم، وتطلب مرضاتي، ثم ينطلقوا ليحققوا لي المغانم، وسعة الملك.

لكن كما سبق وتنبأت لهم، فلم يسكت أبنائي عن ضيم، عندما اشتد عود الميديين واشادوا إمبراطورية الكورد، لم يترددوا من الاتفاق مع الكلدانيين، وقاموا بهزيمة مملكة آشور، كان ذلك سنة ٦١٢ قبل المسيح.

أجل، عبارته هذه جعلتني أشد انتباهاً إلى مكامن نقاط ضعف جبابرة، وقادة، وسلاطين، وملوك، وأباطرة المعمورة الذين أفصحوا عن مكامن نقاط وهن نفوسهم العظمى إزائي، وقد استسلمتْ بهم تلك النقاط على ضفاف خلوتي.

قال: أماتزال ذاكرتكِ تحتفظ بكل هذه الوقائع ؟

قالت: هذه هي ذاكرتي، كل مدينة تستمد قوتها وحضورها من ذاكرتها، المدينة التي لا ذاكرة لديها، لا تقف على أركان مدينة.

كل واقعة، بل كل كلمة سمعتها، ما أزال أحتفظ بها كما لو أنها وقعت بالأمس.

عندما رست سفينة نوح على الجودي، كان عهدي بأبناء آدم الثاني

قال: آدم الثاني ؟!

قالت: بعد الطوفان بات نوح هو أب الناس جميعاً، لأنهم تناسلوا من صلبه. زحف الناس يومها إلى ربوعي واتخذوا من كهوفي مخابئ ومآمن لهم.

إذا أعدتك إلى ستين ألف سنة ماضية، سترى معي كما لو أنه حدث في رأس السنة الكوردية الماضية أن الناس قطنوا هنا في كهف شاندر.

قال: متى كان ميلاد السنة الكوردية ؟

قالت: كان ذلك سنة سبعة آلاف قبل ميلاد المسيح، الناس بشكل عام كانوا يتوافدون إلى كل مدن هذه المنطقة الخصبة التي كانوا يسمونها أرض الكورد.

في عصر حضارة مابين النهرين كانت أرض كوردستان، أعني «كوردواري» لكن لأخفف عليك شيئاً وأنا أدرك أنك لن تستوعب مني كثيراً إذا حدّثتك بأصيل لغتك، لأن اللهجات توالت، وميزت طوائف الكورد عن بعضها، وعبرت عن خصائص كل طائفة.

قال: كم لغة تعرفين سيدتي ؟

ضحكت وقالت: قل كم لغة لا تعرفين.. لا أظن أن هناك لغات لم يعلمني إياها الملوك، ولم تعلمني إياها الغزوات التي تعرضتُ إليها، كنتُ أتحدث كل تلك اللغات بطلاقة، لكن لا أخفيك أن أحب اللغات إلى قلبي هي اللغة الكوردية، كما أن أحب الأسماء إلى نفسي

هه وليز.

أشعر بجمالية الحروف عندما يناديني به الناس، إن كل حرف من حروف هذا الإسم تسري في عروقه كريات دماء كورديتي.

كانت هذه البقاع تجذب وتغري الناس لدخولها أكثر من أي بقاع أخرى في رحابة أرض الرب.

في العهد العباسي، عادت هذه الأرض لتشهد أمجاد الإمارات الكوردية لأنهم أصبحوا مسلمين موالين ، يؤازرون دين الإسلام، فكانت إمارة عيشاني، وإمارة روادي، وإمارة شدادي، وإمارة مرواني، وإمارة عنازي.

ثم ابتسمت وقالت: إمارة هزباني.

وأردفت تقول ببسمة: هذه الإمارة الكوردية لي معها ذكريات طيبة لأنها كانت تخصني، وهي تذكرني بأميريها: عيسى بن موسى الهزباني، وأبو الحسن بن موسسكي الهزباني.

خيم صمت عليهما استغرق زهاء نصف ساعة من عمر اللقاء، ثم ما لبثت أن كسرت زجاجته وهي تقول: أخذتُ من كل شخص من أولئك شيئاً لبني قومي، وهذا ما أفادهم كثيراً ، وألحق بهم الهول كثيراً.

أفادهم لأنهم تحولوا إلى خلاصة من الرحمة ، وآذاهم لأن طيبهم فاض بهم عن حدوده الدنيا.

ثم نهضت هولير، واستأذنته بالخروج، ابتعدت عنه بخطواتها دون أن يجسر على النهوض لوداعها، أن يصطحبها إلى الباب، أن يلوّح لها بكفه، وهي تتوارى في حلكة العتمة.

يالقسوة وقع المرض

يالهول ضعف الإنسان تحت جبروت الألم.

الليل، يا لوحشة الليل

السكون، يا لهول السكون.

للتو أدرك أن الإنسان يكون بخير ما دام يملك قدمين ينطلق بهما إلى حيث يشاء، وإن لم يملك قدمين يستطيع أن يقف عليهما ويمضي، فإنه لا يملك شيئاً.

كان عندما يغلبه الشوق لهولير، يجوب الأحياء، يخرج من سيتاقان، ويدخل طيراوة، يطوف طرقات خانفاه، ويجنح إلى الإسكان، يعرج إلى سيداوه.

في اليوم التالي يجوب أحياء أخرى، وعندما يشعر بإرهاق يستخدم «الكوسر» الباص، يلج: آزادي، يمشي في طرقات كوران، يزور شورش، يتأمل زانياري، يشم رائحة هولير وهو يتجول بين الأحياء: روناكي، منتكاوه، علماء، برايتي.

يخرج كل يوم من البيت وقد تأنق، يقوم بزيارة جديدة لم يزرها من قبل، وهولير تزداد غنىً، تزداد تألقاً.

ويا لجمال «تل قالينج آغا» تفوح منه رائحة إنسان ما قبل التاريخ ، مصيف صلاح الدين الذي يتربع على جبل بيرمام، ويتكئ على وسادة جبل سفين، ولا يسمح لدرجة الحرارة أن تتجاوز ٣٦ درجة مئوية مهما كانت ظروف الطقس استثنائية في ذروة الصيف، حيث يرتفع ١٠٩٠ متراً على سطح البحر، ويزدان بأشجار البلوط، والسرو.

يأخذ عائلته في يوم آخر إلى مشاهدة «المنارة المظفرية»

وفي يوم آخر إلى جامع جليل الخياط، وآخر إلى مرصد هولير.

كل يوم يكتشف لمسات جديدة في هولير، حتى تلك الأماكن التي رآها، فإن كل مرة جديدة تريه ما لم يره في المرة السابقة، ويا لسوق القيصرية المكتظ بكل ما يمكن للمرء أن يحتاجه حيث يشرع أبوابه أمام زوّاره من للدخول من مداخله المتعددة ، وهو يستقر وسط البازار ، جنوب القلعة ، وكل مدخل يحمل لمسة من لمسات هولير، يعبق بلون من ألوان زهورهولير.

متعة الولوج من المدخل المقابل للقلعة، المحاذي لجامع الحاج نوري، من مدخل سوق التنكجية، مدخل سوق الحر، مدخل سوق النجارين، سوق الهرج ، سوق القصابين ، سوق البقالين ، سوق الأقمشة ، سوق الألبان .

الدخول من فروع المداخل، والتجول بين ثنايا الفرع حيث

ينهال الناس من كل حدب وصوب للتسوق وشراء حاجاتهم.

عندما تعالت أصوات الآذان، راوده إحساس بأن موعد قدوم آفان بات قريباً، فهي الآن تنهض للصلاة، ثم تقرأ شيئاً من القرآن، وبعد ذلك توقظ الأطفال، تحضر لهم الطعام، ثم تلبسهم وتأتي.

تأمل جدران الغرفة وفي لحظة راوده إحساب بأنه عقد علاقة مع هذه الجدران، كم من أناس دخلوا هذه الغرفة، وتركوا ذكرياتهم فيها، وكم من أناس سيدخلونها بعده.

إنها جدران صامتة خرساء، بيد أنها شاهدة على ذكريات أناس، وكاتمة أسرارهم.

دخلت ممرضة، وبدأت تخرج من يده حقنة السيروم قائلة له: الحمد لله على سلامتك ماموستا. اليوم أذن الطبيب بخروجك.

هزّ لها رأسه بالشكر متمتماً: «زور سوباس عزيزتي ، دست خوش ».

بعد قليل، انفتح شق الباب، فمدّت ابنته «بيرهات» رأسها، وهرعت إلى حضنه، ثم ما لبث أن دخل ابنه الوسط «لاوين»، وعقبه ابنه الصغير «سيروان».

بدأوا يتبارزون بطبع القبلات عليه، وهو يبادلهم القبلات، لكن سيروان كعادته يريد أن يكون الأثير والأقرب إلى حضنه. ضمه

إليه وهو يمازحه ويقبله.

في تلك اللحظات كانت زوجته تتم إجراءات خروجه من المشفى، وعندما دخلت، قالت: كل شيء على ما يرام، يمكننا الآن أن نخرج من هذا المكان، السيارة تنتظرنا في الخارج.

أجل، ها قد حان موعد الخروج. تأمل الجدران، قفزت هولير إلى مخيلته وهي تجالسه في هذه الغرفة. تلك الحقن التي تلقاها حقنة حقنة، إبتسامات الممرضات، لحظات دخول الطبيب، جهاز الضغط وهو يلتف حول يده، ميزان الحرارة الذي يضعه في فمه. السهر بمفرده حتى وقت متأخر، النهوض صباحاً والضغط على الزر لتناول كاس من الشاي.

نهض ببطء شديد، تقدم أحد الممرضين يعينه حتى بلغ السيارة الواقفة بمحاذاة رصيف المشفى.

عندما تحركت السيارة، ألفى نظرة إلى المشفى الذي بدأ يبتعد عن حجم بنائه.

دخل البيت وقد شده الحنين إليه، أحس بأنه طير قد عاد بعد غياب إلى عشه.

تمتم في قرارة نفسه: ليس للإنسان من مكان أأمن من بيته، لذلك يبقى باحثاً عن بيت، ولا يشعر بسكينة إلاّ بعد أن يعثر على هذا البيت، حتى حلم التوسع في امتلاك أكثر من بيت ما هو إلا الوجه الآخر لترسيخ عملية الشعور بمزيد من أمن، أو بأمن

إحتياطي.

عندما رأى فراشه في الغرفة الكبيرة التي اعتادوا النوم فيها جميعاً، طلب من زوجته أن تنقل الفراش إلى الغرفة الصغيرة كي يمضي أيام نقاهته فيها.

عبّرت آفان عن إستغرابها لمطلبه، بيد أنه ذلك سيتيح له كي يأخذ أكبر قدر من الإسترخاء البدني والنفسي، أن يتجنّب أي شيء يمكن أن يعكّر عليه عمق استرخائه.

ثم تمتم بصوته الممزوج ببحة مرض: ما ذنب الأطفال كي أحرمهم من مشاهدة التلفاز، ما ذنبهم كي أمنعهم من ممارسة ضجيجهم الطبيعي.

هزّت آفان رأسها وقد اقتنعت بوجهة نظره، وشرعت في الحين تنقل الفراش بخفة كما لو أنها تتمتع بلياقة حصان، رغم أنها لم ترتح لفكرة بقائه بعيداً عنهم، فهو في أي لحظة متوقعة أو غير متوقعة قد يحتاج إلى خدمة ما، وليس بوسعه أن ينهض.

لكنه مرة أخرة أقنعها حينما قال بأنه عندما يحتاج شيئاً، سيرن لها على هاتفها الخلوي.

حينئذ لم تملك نفسها من تكرار ماقالته سابقاً في عشرات المواقف المشابهة: عندما تريد لأمر أن يحدث، فإنك تقنعني به كما لو أنك محام ماهر تقدم كل المبررات والبراهين حتى تقنعني بأن عدم حدوثه يكون بمثابة كارثة، فأفعل ما بجهدي حتى يتم الأمر حسبما

تشاء، وعندما لا تريد لأمر أن يحدث، تقنعني به وأنت تقدم كل الحجج التي تحول دون وقوعه.

يالنا من مساكين نحن معشر النساء، نصدق كل كلمة نسمعها.

ثم قالت في سرها وهي تحدّجه بنظرة: لكن قلبي يوحي لي بأنك تريد البقاء بمفردك لغاية في نفس يعقوب.

رأى بأنها فرصة سانحة له كي يدخل إلى عالم الكسل والنوم والاسترخاء كما يحلو لبعض الرجال الذين يفضلون الإنزواء والإنطواء وألاّ يروا أحداً ولا يراهم أحد في بعض المراحل من حياتهم، وهي مرحلة هامة زيّنها لنفسه حتى راوده توق إليها.

إنها مرحلة لبقاء قسري بين جدران أربعة، يمكنه أن يكتشف بعض المزايا التي لا تتبدّى لأحد إلاّ من خلال خوض غمار تجربة عيشها لحظة بلحظة.

نوم، إستيقاظ، تناول وجبات الطعام مع العائلة، إنترنت، موسيقى، شاي، نسكافة، حليب، قهوة، عصائر، مكسرات، كاتو، حلوى، شوكولا، مثلجات.

وعندما يحن للأطفال، يناديهم، فيتحلقوا حوله، يمازحونه، وكالعادة يتسابقون في تقبيله، وطلب حاجات منه.

يضمهم إليه منتشياً بلذة ممارسة مشاعر الأبوة وهو يستجيب لطلباتهم.

ثم يخرج نقوداً من محفظته، ويناولها لآفان قائلاً: يا أولاد ما رأيكم الليلة بحفلة تشبه حفلة عيد

الميلاد ؟

يبتهج الأطفال مبدين موافقتهم، فتهز المرأة رأسها قائلة: لن أوجع رأسي بالحوار معك، مادمت طلبت ذلك، ستقيمه شئتُ، أم أبيتُ.

علّمَتني السنوات الماضية أن أعتاد على طقوسك وأتقبلها.

قال وزوجته تتأهب خارجة لشراء لوازم الإحتفال: ادعمينا عزيزتي، لاتمسكي يدكِ كثيراً.

التفتت إليه هازة رأسها فقال: إذا كان المرء سعيداً، يستحق الأمر أن يقيم حفلة بهذه المناسبة.

في صبيحة اليوم التالي، تناهى إليه رنين جرس هاتفه، وعندما حمل الجهاز وألقى نظرة إلى الشاشة، رأى اسم «كاروان».

أحس بفرح وهو يذكر هذا الصديق بكل ما يمثل من واقعية وجرأة وانفتاح، الذي شاءت المصادفة أن يتعرف إليه بعد نحو شهر من إقامته في هولير عندما دخل محله الخاص بتصوير الأوراق، وطلب إليه أن يصور له كتاباً إلكترونيا من الفلاش إلى الورق.

رحب به الرجل، وقدم له كأساً من الشاي، وغدا يتبادل معه أطراف الحديث حتى فرغ من تصوير الكتاب الذي ناهز مئة وثلاثين صفحة.

بعد ذلك فوجئ به وهو يمتنع أن يقبض قيمة التصوير رغم محاولات عديدة حتى أنه مد خطوات إلى الخارج قائلاً: إن لم تأخذ ولو نصف القيمة، لن آخذ الكتاب، وسأذهب إلى تصويره في مكان آخر.

أعاده وهو يقول بإصرار: لاآخذ الثمن، ولانصف الثمن، ولا ربعه، اسمع ولاتكن عنيداً، أولاً لأنك ضيف، وثانياً لأنك ستقرأ كتاباً عن تاريخ الكورد.

قال: لكنني كوردي

أجابه بجديته: كوردي يقرأ، خير من كوردي لايقرأ.

حينها تناول الكتاب مضطراً وقد ركبه حرج شديد، ومن جهة أخرى لبثت عبارته عالقة في ذهنه.

أمضى ثلاثة أيام في قراءة الكتاب، وهو يشعر بأن ذاك الرجل هو الذي ألّفه، ولبثت صورته تتقافز من صفحة إلى أخرى، وعبارته: كوردي يقرأ، خير من كوردي لايقرأ. لا تفارق ذاكرته وهو يلفظها بنبرات جادة.

في أمسية اليوم الرابع وقد فرغ تماماً من قراءة الكتاب، خطر

له أن يقوم بزيارة إلى ذاك الشخص كي يلقي عليه السلام، ويجلس بعض الوقت عنده، فراح إلى محل لبيع الحلويات وأخذ علبتين من أنفس وأثمن ما تنتج هولير من حلويات، وأقبل إلى الرجل مقدّماً له الهدية.

رحب به وقد بدت علامات حرج شديد على سحنته، ثم ما لبث أن قال بنبرة حملت شيئاً من الإستياء: لماذا فعلت هذا عزيزي ؟!

قال: كوردي يقدم هدية، خيرٌ من كوردي لايقدّم هدية

للتو ابتسم وبدا أن العبارة تركت أثراً عليه، فقلبته من حال إلى حال، ثم دعاه للجلوس محتفياً به وهو يقول مبتسماً: ألم أقل لك: كوردي يقرأ، خير من كوردي لايقرأ.

ثم تناول الهدية من يده وهو يقول: ليس من شيمة الكوردي أن يردّ هدية، لكن عزيزي وضعك لايسمح.

قال: لايهمك، أختك أم لاوين كانت قد خبأت قرشنا الأبيض ليوم أسود.

ضحك كاروان وقال: للنساء حدسهن الخاص بهن.

قال: عندما أقبلنا على مغادرة بيتنا، فوجئتُ بها تعطيني حزمة نقود !

نظرتُ إلى الحزمة وقلت: من أين لك هذا يا أم لاوين ؟

قالت: وهل لي غيرك في مسألة كهذه ؟!

استغربتُ لجوابها، فسارعتْ في القول: كلما كنت تعطيني مبلغاً لشراء حاجات للبيت، كنتُ أقتصد وأخفي منه شيئاً لعلنا نحتاجه في يوم أسود لم نحسب لحلوله حساباً، وإن لم يأتنا ذاك اليوم، لن نخسر شيئاً.

ثم بكت وهي تقول: أظن أنه لن يأتي علينا يوم أشد سواداً من هذا، وقد تركنا خلفنا ديارنا وممتلكاتنا ومصادر رغد عيش أطفالنا، ونحن نحملهم بأسناننا كما لو أننا قطط ونلوذ بهم من هول الحرب التي لم تدع حجراً على حجر.

قال كاروان: سيدا ، دوماً للثورات ضرائبها الثقيلة خاصة في بلادنا التي بات الحاكم يختزل فيها الدولة بشخصه، ويعتبر أن إزاحته عن سدة الحكم بمثابة إنهيار لقوائم الدولة برمتها، ومنذ استلامه لمقاليد الحكم يخطط لهذا المفهوم ويعمل له، بحيث عندما يحدث طارئ ويُقتلع من كرسيه بالقوة، يقع كل ما كان رتّب له من عوامل الانهيار في بنية المجتمع، وبنية الدولة، وحينها سيندم الناس عليه، ويعيدوا تجسيده بطلاً وطنياً لأن الأمن في عهده كان مستكيناً، والبلاد كانت عامرة، والناس كانوا في منازلهم وعلى رؤوس أعمالهم كأمراء.

أهل الغرب استطاعوا أن يتحرروا قليلاً من عقدة اختزال البلاد في شخص الحاكم، فقبل هذا الحاكم أن يتنازل ويختزل حقبة واحدة بشخصه، ويسلّم البلاد ما أمكنه إلى الحاكم الجديد وهي في أوج ازدهارها.

صمت قليلاً ثم أردف يقول: في اعتقادي لو لبثت بلاد العرب كلها ممالك، لكان ذلك أفضل لها ولشعوبها، لأن الجمهوريات تحولت إلى الوجه السلبي للممالك .

رئيس الجمهورية بات لا يقبل التنازل عن كرسيه، وهو يرى زميله الملك الذي يقيم على أميال منه يبقى على كرسيه ، ويورّث المُلك لولده، فبات هذا الحاكم يقتدي به، بيد أن مشكلة الجمهورية تسببت في إشعال كل أشكال الاعتقالات والاغتيالات وأشكال الأذى التي لحقت بالبلاد والعباد.

في الغرب يكون الأمر مختلفاً، فلا أحد يبقى أكثر من مدة محددة، وبذلك فإن الكراسي تكون دائمة التجدد.

لقد قبلنا نظام الجمهوريات دون أن نتهيأ لها بشكل جيد كما تهيأ لها الغرب، كانت قرارات متسرّعة للغاية، والآن ندفع ثمنها بشكل باهض.

إذا نظرت إلى الحكّام الذين تركت الثقافة الغربية أثرها عليهم، سترى بأنهم أكثر ليناً، لذلك ترى أن أول ثورة اشتعلت في أكثر دولة انفتاحاً على الغرب، وقَبِل الحاكم أن يقتدي بالغرب وينسحب بهدوء، وهذا ما شجع الناس في البلاد الأخرى للثورات بشكل متسرّع ظناً منهم بأن حكامهم سيقتدون بسلفهم.

بعد قضاء نحو ساعة ونصف من جلوسه مع صديقه والاستماع إلى وجهة نظره، شكره على ترحيبه، وكذلك على

حديثه، ثم نهض مودعاً إياه، لكن الرجل فاجأه قائلاً: إذا أذنت لي، دعني أكمل حفاوتي بك، أنت الليلة معزوم عندي على العشاء.

عندما رآه مصراً على ذلك، لم يشأ أن يرده، أو يفسد عليه حالته الاحتفائية به فأبدى موافقته.

بدت علامات البهجة على الرجل وهو يعد لإغلاق محله، عندئذ أخرج هاتفه وأجرى اتصالا بآفان يخبرها بما وقع معه.

وافقته على رأيه قائلة: فرصة ممتازة لتغيّر فيها الجو، لأن هنا لا أصدقاء لديك، أنت بحاجة إلى تغيير كهذا، أتمنى لكما سهرة طيبة.

أنزل الرجل باب الدكان المعدني السحّاب، ودعاه لركوب السيارة مستأذناً بأنه سيأخذ بعض الحاجات إلى البيت، ثم سينطلقان إلى مكان جميل يمضيا فيه سهرة ممتعة.

مضى بالسيارة قليلاً، ثم توقف أمام محل، إبتاع طنجرة صغيرة من لبن الغنم الهوليري، ثم صحناً من البيض، وعلبة عسل، وأخرى طحينة، ثم عرجا إلى مخبز، واشترى عدة أرغفة من خبز التنور المرقّد الساخن.

جلس في السيارة قائلاً: ها قد تحررنا من طلبات البيت.

وعلى الفور سحب هاتفه، وأجرى اتصالاً بزوجته طالباً منها أن يخرج إبنه إلى باب البيت كي يأخذ الأغراض.

عندما أقفل الهاتف، هزّ رأسه وهو يبتسم: مشكلة المرأة الوحيدة في هذا العالم أن الرجل دوماً يسيء فهمها، وأنها دوماً تُحسن الظن به.

هذه المسألة جلبت لها الكوارث، فلا هي تتخلى عن حسن ظنها بالرجل، ولا هو يتخلى عن سوء فهمه لها.

عندما تسيء الظن به، فإنها ستتساوى به، ويصبحان في وجهات نظر متقاربة، وعندما يحسن الظن بها، فإنه سيتساوى بها، ويغدوان في وجهة نظر متقاربة.

قال: ترى بأن المسألة كلها متوقفة على سوء وحسن الظن ؟

أجاب: إن أفضل الأيام التي تمر على الزوجين هي تلك الأيام التي يخفف كل واحد منهما من حدّة وجهة نظره تجاه الآخر، وأسوأ الأيام التي تمر عليهما هي تلك الأيام التي يصعّد فيها كل واحد منهما من حدّة وجهة نظره.

تمتلك المرأة طاقات غنية يمكن لها أن تمنح الرجل كثيراً، لكن الذي يحدث أن الرجل أحياناً يسيء فهمها ولا يدع لها حرية ممارسة عطاءها له، ولذلك يا صديقي، لم يستطع الرجل أن يستمتع بكل مزايا المرأة وكل ما يمكن لها أن تهبه إياه، وهو على الأغلب يشكل عامل استفزاز وإزعاج بالنسبة لها خاصة إذا كان زوجها، بيد أنها تأخذ كل ما تلقاه من هذا الرجل على محمل التيسير حتى تستمر حياتها معه.

إنها تغمض عينيها عن رؤية أشياء كثيرة، وتصم أذنيها عن سماع كلمات كثيرة في الوقت الذي لا يقبل شريكها فيه أن يغمض عينيه عن رؤية شيء واحد، أو يصم أذنيه عن سماع كلمة واحد ة.

توقفت السيارة بمحاذاة باب يقف صبي بجانبه عندئذ قال: هذا إبني سربست يا صديقي.

تقدم الصبي يسلّم عليه في السيارة، وراح يقبّل والده من خدّه، ثم شرع على الفور يحمل الأغراض ويتجه إلى البيت.

أدار السيارة ومضى في ذات الطريق قائلاً: ما زال الوقت باكراً، ما رأيك أن نتجوّل قليلاً في شوارع هولير ؟

هزّ رأسه بالإيجاب قائلاً: فكرة جيدة، مما لاحظته في هولير ظاهرة قيادة المرأة للسيارة بكثافة ربما لم أشهدها في مدن كثيرة.

قال: هذا شكل من أشكال الحرية التي تمتعت بها امرأتنا الكوردستانية، وها هي تثبت بأنها تقوم بكل ما بوسعها كي تخفف عن الرجل.

تعرضت المرأة لقسوة مضاعفة عن قسوة الرجل بسبب حساسيتها، ومشاعر أمومتها، وحرصها الشديد على بيتها، وذلك لأن المرأة تبذل جهداً أكثر من الرجل في تربية أبنائها، تبذل جهداً أكثر منه في تكوين وتطوير بيتها، لذلك فهي تحافظ على ما تكسبه، وإن نظرت إلى قيادتها للسيارة، سترى بأنها تقود ببطء،

ولا تزعج أحداً بقيادتها، وتتقيد ما أمكنها بقواعد القيادة.

المرأة في كوردستان انخرطت في غالبية مجالات العمل لتساند زوجها في تكوين البيت وتربية الأولاد، والرجل لم يتشدد في هذه المسألة، بل ترك لها حرية أن تمارس ما تكون قادرة عليه من أعمال.

أخرج سيجارة، وبعد أن أشعلها قال: أتعرف بأنكم أضفتم حيوية جديدة إلى كل أرجاء الإقليم ؟

عبّ نفساً من سيجارته ثم استأنف يقول: المخبز الذي كان يبيع كل يوم بمئة ألف دينار، بات اليوم يبيع بمئة وخمسين ألفاً، وقس ذلك على المطاعم، واللحامين، وبائعي الدجاج، والخضار، والفاكهة، وأصحاب السيارات.

بل إذا سألت أي شخص من عموم أهالي الإقليم عن مستوى دخله، سيخبرك بأن دخله الشهري قد زاد بشكل ملحوظ.

أنتم عزيزي لم ترضوا أن تعيشوا دون إنتاج لأن طبيعة الإنسان الكوردي هي طبيعة بالغة الحساسية، فحتى لو كان ضيفاً، بعد ثلاثة أيام سينتابه شعور بأنه متطفل على مستضيفه.

لذلك، انطلقتم إلى ساحات الإنتاج حتى صار الإقليم ينتج ضعف ماكان ينتج من كل مقومات الحياة، إضافة إلى ذلك ، لقد جلبتم معكم أموالاً، وتصلكم أموال من أقربائكم خارج البلاد، وبعضكم تصله أجور عقاراته واستثماراته التي تركها.

أعلم أن الكورد يُعدّون من الأغنياء في جناح كوردستاننا الغربي، لاأعني غنى المال فحسب، بل غنى الحرفة ، والطب، والقانون، والسياسة، والفن، والأدب، والهندسة، والعمارة، والتكنولوجيا.

والإقليم يحتاج إلى مهاراتهم، وهذه هي فرصته الوحية للاستفادة من هذه المهارات، لأنهم عندما تضع الحرب أوزارها سيرجّحون فكرة العودة إلى ديارهم.

ثم أضاف وهو يشعل سيجارة جديدة: حتى الذين يقيمون في مخيّم دوميز، فإنهم يتخذون من المخيّم مسكناً مجانياً آمناً لعوائلهم، ثم ينطلقون إلى مواقع أعمالهم ومنتجاتهم من الصباح الباكر، ويعودون مساء إلى عائلاتهم.

إنهم يبنون، ويزرعون، ويحصدون، وينعشون تربية الثروة الحيوانية، والمسامك، ويدرّسون في الجامعات، يديرون المشافي، والعيادات، والمشاريع الهندسية، ودوائر القضاء، والإعلام.

هذا كله إذا وضعنا المكاسب الإنسانية والسياسية المتقدمة التي تحققت للإقليم بفضلكم في كفة أخرى.

غداً عندما تذهبون، سينتابنا شعور بأننا بقينا في صحراء قاحلة، سنفتقد حراككم، نفتقد رائحتكم.

سنشعر بهول الفراغ الذي يخلفه غيابكم، سيعود كل شيء إلى ركوده الأزلي، سنبدو ضعفاء مهما توافد إلينا الآخرون، حينها

سنكتشف الوجه الآخر للخسارة التي خسرناها، وسيتأكد لنا أكثر بأن أمة الكورد لن تكون أمة معتبرة بين الأمم إلا وهي تؤازر بعضها البعض.

بدت هولير هادئة والساعة تتجاوز التاسعة مساء، يفترش الليل ثنايا الطرقات المزدانة بالمصابيح.

قال كاروان: الناس هنا يفتحون محلاتهم مبكراً، ويغلقونها مبكراً، لا يسمحون لساعات العمل أن تستأثر بكل وقتهم، إنهم دوماً يتركون متسعاً لممارسة وقائع حياتهم الإجتماعية.

وهو يصغي إليه، خطرت له فكرة تقسيم الناس إلى أناس اجتماعيين، وأناس عاملين، وأناس توفيقيين.

تذكر أنه يعرف أناساً كانوا يمضون جل وقتهم في العمل، ولا يدخلون بيوتهم إلاّ عندما ينهكهم إرهاق العمل، ويقبلوا من باب البيت إلى الفراش، ثم يتجهوا من الفراش إلى باب البيت.

راوده إحساس أن الناس هنا يعيشون حالة هدنة مع الحياة برمتها، وقد أنهكتهم المطاردة، إنهم لايعرفون في أي لحظة سوف تنقلب عليهم موازين الأمور، ولولا سكينة الإيمان التي يستكينون في محرابها، لما وجدوا بدّا من تحويلهم إلى أناس لامنتميين.

كانوا سيعيشون حياتهم كالغجر الرحّل في الخيام، وعند منعرجات الأنهار، والتسكع على أرصفة العالم، كانوا سيمضون

حياتهم في حالة عدمية مطلقة.

حينها بدا ما قالته له هولير يتداعى إلى ذاكرته كما لو أنه شريط سينمائي:

الحياة ما هي إلاّ سلسلة أحداث يتربع على عرش بطولتها الأقوياء.

هزّ رأسه كمن تلقى حكمة أيقظته من غفوة.

أردفت: الأقوياء هم ذاكرة التاريخ، يشكلون حلقاته المتحاقبة.

لبث في حالة سكون وهو ينظرإلى الأرض، فترامى صوتها: عندما تكون قوياً، فإن الأقوياء يستوهنون منك.

بعد صمت ليس بالطويل إستانفت تقول: وعندما تكون ضعيفاً، فإن الضعفاء يستقوون عليك.

يعرفني سكنتي أكثر من غيرهم بأنني أمقت الضعفاء وأبصقهم من تربتي حتى لو كانوا فلذة كبدي، ثم أستبدلهم بأناس أكثر منهم قوة ويكونون على جدارة بالعيش في محرابي.

الأمة الواهنة هي تلك الأمة التي لا مستقبل لها، وتعيش متطفلة على فضلات الواقع.

ثم بدأت تعدد له الأقوام التي تلاشت عندما استوطنها الوهن، اللغات التي ذابت على ألسنة أناس ضعفاء.

قفزت كل تلك التداعيات إلى مخيلته كما لو أنه في فيلم

سينمائي، والسيارة تمضي به على مهل في أُنسِ ليل هولير.

للتو أدرك كم أن الإنسان يمتلك طاقات مبهمة خفية يمكن لها أن تحقق له ذروة المجد، ذروة التحرر من كل قيد. يمكن له أن يمارس مطلق حريته، ويستمتع بكل لحظة من لحظات الحياة.

كاك كاروان، كم أن الحياة جميلة وهادئة في هذه البقعة من العالم.

قالها بنشوة وانشراح كما لو أنهما يحلقان كطيرين في فضاء هولير.

ربت صديقه على كتفه: طبعاً جميلة، ومن يقول بأنها ليست جميلة، فإنه ليس جميلاً يا صديقي.

كل الوجوه التي التقاها منذ أن وطأت قدماه أرض كوردستان بدأت تظهر، وتذكره بمواقفها.

كلهم يصرون أن يعبروا له بأنها فرصتهم الوحيدة كي يؤازروا أخوة لهم، إذ لم يسبق أن لجأ إليهم أحد، لم يسبق أن لاذ بهم أحد.

على مدى كل تلك الحقب كانوا يلجأون، فبات الآن يُلجأ إليهم

كانوا يهربون، فبات الآن يُهرب إليهم

كانوا يلوذون، فبات الآن يُلاذ بهم

إنها فرصتهم الوحيدة كي يعطوا كل شيء

أن يعطوا أكثر مما أُعطوا
أن يحتضنوا أكثر مما احتُضنوا
وكلما أعطوا، راودهم إحساس بأنهم ما أعطوا شيئاً.
ذلك أنهم يعطون وهم أغنياء
يعطون وهم يحكمون ديارهم
يعطون وهم أقوياء
وقد أُعطوا من أكرادٍ كانوا معدومين
أُعطوا من أكراد كانوا واهنين
أُعطوا من أكراد ماكانوا يحكمون ديارهم.

ثم ما لبثت أن قفزت صورة «خوشناو» صاحب المكتب إليه عندما مضى شهر، وراح يسدد له أجر الشهر الثاني، حينها أعاد له خوشناو نصف الأجر قائلاً: هذا يكفي.

ومرة أخرى لمح دموعاً تُذرف من طرفَي عينيه، فسأله عن السبب.

عندها شرح له الرجل بأنه كلما ينظر إليه ينتابه إحساس بأنه مرآة يرى فيها نفسه منذ ربع قرن مضى عندما لجأ مع عائلته إلى بيت كوردي في أيران.

كان الطقس شديد البرودة وسيئاً للغاية عندما بُثّ الذُعر فيهم

نتيجة قصفهم بغازات سامة بهدف اجتثاث سلسلتهم من الأرض من أجل الاستيلاء على ديارهم.

أفواج بمئات الألوف كما لو أنه يوم الحشر المعلوم، تحيط بهم روائح غازات خانقة وبين لحظة وأخرى يسقط طفل رضيع من حضن أمه المنهكة، تقع امرأة مُسِنّة، يرتمي شيخ عجوز وقد بلغ به العمر عِتِيّه. والأفواج تزداد تدفقاً وكثافة شطر الحدود حيث فتح الكورد الذين لاحول لهم ولاقوة بيوتهم ومساكنهم أمام بني قومهم.

عندها، تحجّرت الكلمات في حنجرته، وانهالت الدموع بغزارة من مقلتيه وهو يتخيّل ذاك الرجل الطيب الذي كفله وقاسمه بيته وفراشه وطعامه بسخاء رغم أنه كان فقيراً يعمل سائقاً للتكسي.

ثم بدأ يبلع ريقه ويحاول تهدئة نفسه قائلاً: ليت الأمر انتهى عند هذا الحدّ ، بل الذي عاد إلى بيته، رأى نفسه وسط واقع شبحي من ذكريات أكثر من قاسية بدأت سياطها تنهال عليه ليلاً نهاراً، فيُفزع ساعة الفجر ويفرّ من الفراش وهو نصف نائم ونصف مستيقظ .

أيقظه صوت صديقه وكأنه كان في غفوة ثقيلة: ها قد وصلنا عزيزي ، انفض عنك كل شرود لأنك مقبل إلى عالم لامكان فيه للشرود.

نزلا من السيارة، وسارا ببطء صوب مدخل المقصف الذي بدت موائده عامرة بالناس، وبألوان الطعام والشراب.

في تلك اللحظات، قفزت مدينة دبي إلى مخيلته، ولا يدري لماذا بدا يجري مقارنة بين هولير، وبين دبي.

عندما سافر إلى دبي وأقام في فندق ذو نجوم خمس، رأى ألوان الكحول على موائد مطاعمه، مما جعله يتذكر جلوسه في مطاعم القاهرة، ودمشق، وبيروت.

عند وصوله هولير، تخيّل أن فنادقها حتى ذوات النجوم الخمس لن يختلفن عن فنادق ليبيا، وتذكر أنه أقام في فندق «تيبستي» ذو النجوم الخمس في بنغازي، ورغم توافد السياح عليه، لم يكن يُقدّم كحولاً.

تذكر تلك المشاهد وهو يرى أنواع الكحول الفاخرة على الموائد، وهي المرة الأولى التي يرى فيها كحولاً في أحد مطاعم هولير.

قال كاروان: اعتدتُ أن أجلس هنا بين حين وآخر لأن طبيعة بيوتنا لا تحتمل أن يشرب المرء فيها كحولاً.

ضحك وقال: لا أخفيك بأنني أحياناً أشعر بأنني في باريس، وأحياناً يعتريني شعور بأنني في أفغانستان.

ضحك هو الآخر وقد اختار مائدة ودعاه إلى الجلوس: هذه

هي ميزة هولير كاكة ، إنها تجمع ما بين التراث والمعاصرة.

هولير استطاعت أن تنجح في توفيقها بين إرثها الحضاري والإنساني، وبين ثورة الملتي ميديا التي اجتاحت كل أركان العالم، وبالتالي التزم سكانها بخصوصيتها.

قال: هذه من المفاجآت التي رأيتها في هولير.

قال: معك حق، لاتوجد محلات لبيع الخمور بشكل عام، لكن توجد محلات بشكل نادر، أو أقل من نادر يحتاج اكتشافها إلى خبرة ومعرفة بالمدينة بشكل جيد.

عندما أريد أن أشرب قليلاً وأنا أقود السيارة، أو أتجه إلى نزهة مع عائلتي، أذهب إلى «عنكاوة» لأن هذه الناحية تسكنها أغلبية مسيحية.

هنا في المدينة لأن المحلات قليلة، فهي مميزة ببيع الكحول، وأحياناً يجد المرء حرجاً للذهاب إليها لأن الناس يعرفون بعضهم البعض بشكل جيد.

وقد يصدف أن يراك أي قريب في الشارع وأنت خارج من المحل وبيدك الخمر، هنا لن ترى إلّا مَن هو على شاكلتك، جاء فقط ليسهر ويشرب.

بدا له أن كل ركن في هولير يرتدي حلة الرتابة والتخصص في عملية تجنب ما أمكن عن الفوضى.

منطقة لعيادات الأطباء، منطقة للأجهزة الالكترونية، منطقة لبيع اللحوم، منطقة للخردوات، منطقة للمفاتيح والأقفال والحقائب، منطقة للخضار والفاكهة، منطقة للآلات الموسيقية، منطقة للمكاتب العقارية، منطقة لتداول العملات، منطقة لبيع الطيور والدواجن والأسماك.

عندما بدأ النادل يضع أطباق الطعام على المائدة، خطر له ما كان يرى من أفواج الشبان الذين يلجون للتو أبواب الحياة، وهم يقبلون على محلات بيع الكحول في الأحياء الشعبية، يجرعون الزجاجات وقوفاً، ثم يمضون، يستخدمون الحقن والمخدرات في أقبية البنايات الحديثة، يترنحون على الطرقات في سكون الليل.

لايتوانون من الإقدام على أي شيء من شأنه أن يبعدهم عن الواقع، ويبعد عنهم الواقع.

بدا له الواقع كالبيت الذي لا يحبه ساكنه، لأنه يفتقد لأسباب الراحة، فيهرب منه بأي وسيلة.

حتى لو اضطر للجلوس فيه، فإنه يفعل أي شيء كي يبعده عن حقيقة أنه جالس تحت سقفه .

وبين بيت يحبه ساكنه، لأنه يوفر له كل أسباب الرفاه، فيفعل أي شيء كي يعود إليه مبكراً، ويتمتع بذروة يقظته، وهو يلتصق ويستمتع بواقعية وجوده في أركان هذا البيت.

لا يعرف كيف أخذه الشرود حتى تفاجأ بوقف الرنين، ثم بعد

نحو خمس دقائق عاد الرنين ثانية، ففتح الخط على الفور.

ترامت إلى سمعه نبرات صوت كاروان: ماموستا، جوني، باشي، أين أنت ياصديقي، اشتقتُ إليك.

قال: باشم، سوباس، بخيربي سلامتبي ، أنا في البيت، لا شي سوى حاجتي لبعض الراحة.

قال: كاكا ، قم الآن، خذ دشاً، وارتد ثيابك، سأكون عندك بعد ساعتين حتى نخرج، نأخذ معنا طعاماً وشراباً، ونتغدى في الطبيعة، لن أعيدك إلاّ وقد نسيت الإرهاق.

لم يعرف ما يقول، وعندما طال به الصمت، أردف كاروان: أودعك الآن حتى ترتب أمورك.

أخبر زوجته بأن صديقه كاروان سيأتي لزيارته وهو لايعرف بأنه أجرى العملية.

كانت آفان قد التقت به مرة واحدة عندما أوصله ذات مساء إلى البيت وألحّ عليه كي يدخل ويتعرّف على عائلته.

يومها قدّمت له فنجان قهوة، جلس الرجل نحو نصف ساعة، مازح الأطفال وقبّلهم ثم نهض مودعاً وهو يقول: «خوا حفيظ».

بخير جي، سر جاو. قالها وهو يشكره على زيارته.

عندما رُنّ جرس الباب، نهضت آفان لتفتحه وهي تعلم القادم.

ألقى عليها السلام، وسأل عن أحوالها وعن الأطفال.

أجابته وهي تسأل عن أحواله وأحوال زوجته وأولاده.

شكرها على ذلك وبدا منتظراً خروجه، عندئذ دعته ليتفضل.

اعتذر قائلاً بأن الوقت ضيّق، فكررت عليه ذلك.

عندها أدرك أن الأمر يكتفه شيء من الغموض ، فما له لم يخرج ليستقبل صديقه حتى لو لم يكن مستعداً للخروج.

أشارت إليه كي يدخل مرحّبة به، فلم يجد بدّاً من الدخول وقد استبدّ به حرج شديد.

إتجه إلى الغرفة التي سبق أن دخلها مرة واحدة، وهو يفتقد صديقه ولم يسمع حتى صوته، فأشارت إليه أن يذهب إلى الغرفة الصغيرة، ثم اتجهت هي إلى الغرفة الكبيرة.

عندما دخل، تفاجأ بصديقه في الفراش، مال إليه وهو يقبّله سائلاً عن سبب وجوده في الفراش.

قال: لاتشغل بالك ياصديقي، إنها أيام وستعدّي كما عدّا غيرها.

ما هي أحوالك، والله اشتقتُ إليك.

قال: أنا اشتقتُ إليك أكثر، مضتْ نحو عشرة أيام، قلت بأن صديقي يتثاقل علي، فلأذهب إليه أنا.

قال: أنت دوماً في بالي، لكن وقع ما وقع.

قال: ماذا حصل ياعزيزي ؟

قال: إسمها عملية جراحية، ولكن مضمونها أقل من ذلك.

قال: عملية جراحية، ومشفى، ولم تخبرني، الآن معي كل الحق لأزعل منك.

قال: صدّقني حدث ذلك بشكل مفاجئ لم نرتب له.

قال: العملية الجراحية هي عملية جراحية متكاملة سواء أكانت صغيرة، أم كبيرة، إنها بنج، ومشفى، وحقن، وسيروم، ولصقات، وتحاليل طبية، وحمية.

دخلت آفان مقدّمة له عدة أطباقاً من الحلوى وكأساً من عصير البرتقال، شكرها على الضيافة وهو يقول: الحمد لله على سلامة صديقي ياأم لاوين.

ابتسمت وهي تتمتم في سرها :أصدقاؤه ظرفاء مثله.

ثم شكرته وجلست، وبعد نحو عشر دقائق من جلوسها، لحقها الأطفال.

مازحهم الرجل وهو يقول: عليهم أن يتعلموا اللهجة الصورانية، ثم نادى بيرهات قائلاً: ألم تكن في المدرسة في سورية ؟

قالت آفان: كانت في الصف الأول في مدرسة خاصة، لكن تركنا البلد بعد أقل من نصف العام الدراسي، وهنا واجهنا مشكلة اللغة.

قال: ماهي المشكلة لو درستْ في مدرسة

كوردية ؟

قالت: ستكون هناك مشكلة إذا عدنا، هنا لايتغير عنها المنهاج فقط، بل ستتغير اللغة كلها، ورغم ذلك نحن نفكر بهذا الأمر على نحو جاد، لأن المقام قد يطول بنا.

قال الرجل وقد أجلس بيرهات بجانبه: أنتِ كوردية، وتتعلمين في مدرسة كوردية أليس كذلك ياحبيبتي ؟

قالت: نعم

قال: إذن لأعلمك درساً في اللغة، هل توافقين ؟

هزّت رأسها بالإيجاب مبتسمة.

قال: احضري لي دفتراً وقلماً.

نهضت، وبعد قليل عادت حاملة الدفتر والقلم.

تناول الدفتر وهو يقول: قبل كل شيء لابد أن تتعلمي الحروف الكوردية، وبدأ يكتب:

« ئـ، ب، بـ، ت، ج، ح، خ، د، ر، ز، رْ، س، ش، ف، فْ، ق، ك، ك، ل، لْ، ن، و، وْ، وو، ه، ء، ى، ئ، ع، غ ».

الحرف الأول يعلّمك شيئاً هاماً وهو عدم كتابة الهمزة على الألف، في كتابة الكلمة التي تبدأ بالألف.

قالت آفان: ليست هي فقط، نحن أيضاً نعاني من اللهجة.

قال: هي مسألة وقت حتى يأخذ اللسان على طبيعة اللهجة، علّميها الضمائر بعد الحروف.

قالت: شكراً لك، فبدأ يكتب الضمائر على صفحة أخرى:

ئه مه ــ هذا

ئه وه ــ ذلك

ئه وه ــ تلك

ئه وانه ــ هؤلاء

لیْره ــ هنا

له وىْ ــ هناك

ئه وانه ــ أولئك.

قالت آفان: أيام الأسبوع أيضاً هامة

قال: أجل، ثم بدأ يكتب:

شه ممه ــ السبت

يه كشه ممه ــ الأحد

دوو شه ممه ــ الإثنين

سينشه ممه ــ الثلاثاء

جوار شه ممه ــ الأربعاء

بينج شه ممه ـ الخميس

هه ينى ـ الجمعة

أمّا فصول السنة:

زستان ـ الشتاء

به هار ـ الربيع

هاوين ـ الصيف

بابيز ـ الخريف

الأوقات:

سالْ ـ سنة

وه رز ـ فصل

مانك ـ شهر

هه فته ـ أسبوع

روزْ ـ يوم

شه و ـ ليل

وضروري أن تعلّميها أوقات اليوم مثل:

كاتزْ ميْر ـ ساعة

خو له ك ـ دقيقة

جركه ـ ثانية

سات ـ لحظة

نهضت آفان، وبعد قليل عادت حاملة فنجاني قهوة وقطعتي كاتو، فشكرها كاروان قائلاً: دست خوش.

رشف رشفة من القهوة وقال:

سأكتب لك بعض الكلمات الضرورية.

ثم بدأ يكتب وهو يلفظ:

ئه مروْ ـ اليوم

به يانى ـ غداً

بِياو ـ رجل

زْن ـ امرأة

ناوت جِييه ـ ما اسمك

ناوم ـ إسمي

جونى ـ كيف حالك

به يانيت باش ـ صباح الخير

ئيواره ت باش ـ مساء الخير

شه وت شاد ـ تصبح على خير

خوا حافيز ـ بأمان الله
باوك ـ أب
كورِ ـ إبن
برازا ـ إبنة أو إبن الأخ
خوارزا ـ إبنة أو إبن الأخت
كج ـ بنت
خالوزا ـ ابنة أو ابن الخال
ئاموزا ـ إبنة أو إبنة العم
خوشك ـ أخت
دايك، وباوك ـ الوالدان
برا زْن ـ زوجة الأخ
ئالتوون ـ ذهب
مندال ـ طفل
نووستن ـ نوم
هيْلكه ـ بيض
سيْو ـ تفاح
كاله ك ـ بطيخ

قه يسى ـ مشمش

ده ركَا ـ باب

به نجه ره ـ شباك

كَه رماو ـ حمّام

جه قو ـ سكين

ئاويْنه ـ مرآة

سه رين ـ وسادة

به خير بييت ـ أهلاً

ساردكَه ـ براد

دراوسىْ ـ جار

به رتووك ـ كتاب

أحس بقيمة الصداقة وهو يرى كيف أن هذه الصداقة تجعل من شخص غريب قريباً كما لو أنه أحد أفراد الأسرة. حينها أدرك كم أن الإنسان يحتاج إلى كل تلك المزايا والروابط الإنسانية والإجتماعية لتغتني بها حياته.

يمكن أن يكون الصديق أخاً، يمكن أن يكون خالاً أو عمّاً، يمكن أن يكون كاتم السر، يمكن أن يكون أنيساً، ويمكن عن طريق هذا الصديق يتعرف المرء على صديق آخر.

في تلك اللحظات، نهضت آفان وهي تلقي نظرة إلى ساعة الحائط التي أشارت إلى الواحدة ظهراً.

قال كاروان: يحتاج جسم الإنسان إلى المرض، كي يرتاح قليلاً من الإرهاق، ومن ناحية أخرى يحقق المرض شيئا من التوازن والنضج في شخصية الإنسان.

المرض هو حالة من الهدوء والاسترخاء البدني والنفسي، يتيح للإنسان أن يقوم بمراجعة نفسه، ويختلي بذاته وهو ممدّد على الفراش الأبيض.

بعد أن ينهض المرء من المرض، ويتعافى منه، سيرى بأنه اختلف عمّا كان عليه قبل المرض الذي أتاح له مساحة من روح الطمأنينية ء وهالة من نفاء النفس .

لذلك تراه مستقراً، مستكيناً، منشرح الصدر، هادئ الأعصاب ، يلاطف زوّاره، يمازح أطفاله، يتلذذ بتناول الطعام والشراب بتؤدة ، بمزيد من تؤدة، وعلى أقل من مهل، يغمض عينيه ويغفو كما لو أنه طفل، ثم يفتح عينيه، ويصحو كما لو أنه مابرح رحاب الطفزلة ، تبدو على سحنتة لمعة العافية .

المرض هنا – كاكا - يضفي عليه هالة من البراءة التي تجعله يشعر بأنه طفل لأنه يعتمد في قضاء حاجاته على الآخرين، ويكون كثير الحاجة إلى الآخرين وطلب حاجاته منهم.

خيّم صمت دام نحو خمس دقائق ثم قال: في اعتقادي أن

الإنسان يحتاج إلى قضاء شهر في فراش المرض كل ثلاث سنوات، حتى يكبح المرض جماحه، ويهدّئ من روعه، ويضفي على طموحاته، وهيجانه شيئاً من التوازن.

فتحت آفان الباب، وبدأت تُدخل طعام الغداء، فقد أحضرت من المطعم المجاور سمكة مقلية بزنة كيلو ونصف، وطبقاً من الكباب.

عندها، تناول كاروان السفرة الصغيرة من يد آفان، وطلب أن يسكب لصديقه بيده من الطعام ويضعها على فراشه كي يأكل لأنه لا يستطيع الجلوس معهم.

قال: هنا اعتاد الناس أن يتناولوا طعام الإفطار في السادسة صباحاً، والغداء في الثانية عشرة والنصف، والعشاء في السادسة مساء.

أظن أنكم تختلفون في مواعيد تناول طعامكم عنا.

قالت آفان: نحن نتناول الإفطار في التاسعة صباحاً، والغداء في الثانية والنصف، والعشاء في العاشرة ليلاً.

قال: الطعام يذكر الهوليريين بالغلاء، يذكرهم بـ«بيوك قار» سنة الثلج الكبير، حينها تواصل سقوط الثلج بغزارة في هولير أربعين يوماً حتى امتلأت البيوت واضطر الناس لترك بيوتهم. ثم ابتسم وقال: المصائب تأتي دفعة واحدة، عندها وقعت هزة أرضية جعلت من الذي لزم داره أن يفرّ منه أيضاً حتى أصبح

الناس جميعاً في العراء دون مأوى.

لكن ذلك أفادهم كثيراً لأنهم تعلموا كيف يخزّنوا المؤن في البيوت، ويحسبوا حساباً للطوارئ، وقد أفادهم هذا عندما تعرض العراق للحصار، حينها بدأ الهوليريون يستخدمون ما خزّنوا من مونة، ولعل حذرهم الشديد يقف خلف تحقيق الأمن، حيث كل شخص هوليري ينتابه إحساس بأنه رجل أمن، وأن مهمة حراسة مدينته تقع على عاتقه ، وهو يتحمّل مسؤولية تجاه أركان الأمن .

الناس هنا هم الذين يحققون المنجزات الأمنية والاقتصادية، ويقومون بتكريم الضيف دون أن يلتفتوا إلى جهات حكومية.

إنهم يشعرون بقوة المسؤولية تجاه هولير كما لو أنهم عائلة كبيرة واحدة تعيش في بيت كبير واحد، هذه المسؤولية التي يتساوى فيها الجميع في خط واحد.

قطع شريحة من السمك، ثم أخذ سيخين من الكباب، وسكب صحناً من السلطة.

وضعها بجانب صديقه، ثم جلس يتناول الطعام برفقة آفان والأطفال.

قال وهو يمضغ الطعام: أفضل مافعلته أمي هو أنها تزوجت في هولير، وأنجبتني هنا. ثم أردف يقول: هولير مدينة روحانية بامتياز تحقق طمأنينة روحية لسكانها.

لولم تتخذ أمي ذاك القرار التاريخي في حياتها، لربما كنتُ الآن في أورشليم.

إنتبه إلى كلمة أورشليم التي سمعها من صديقه لأول مرة فقال: لماذا أورشليم بالضبط ؟!

حينها تذكر كاروان بأنه لم يخبر صديقه، فقال: لعلي لم أخبرك ياصديقي بأن أمي يهودية.

كان ذلك منذ زمن، لكن السياسات المقيتة دوماً تتدخل لتفتت نسيج الناس الإجتماعي.

كان أجدادي اليهود يقيمون في هولير، وكان سكنهم يتكاثر بجانب القلعة، وفي محلة الكنيسة، ومنهم مَن كان يعيش بعيداً عن القلعة في محلة تعجيل اليهود.

كانت أمي دوماً تروي لي كيف أنهم كانوا يقيمون مناسباتهم ويشاركهم جميع أهل هولير بهذه المناسبات، من ذلك أذكر ماكانت ترويه أمي عن عيد الخيمة، فكان اليهود يقيمون خيمة من حصير القصب، يزينونها بالأقمشة والألوان، والنباتات، ويعلقون البطيخ بداخلها، كان يحدث ذلك في حوش الكنيسة، بمناسبة إستقبال هطول المطر في بداية الشتاء، ثم يجتمعون فيها ويحتفلون بالعيد لمدة سبعة أيام، إضافة إلى أعياد أخرى مثل عيد الفطير الذي كان يدوم أيضاً سبعة أيام، ومن طقوس ذاك العيد أن النساء تغسل أرضيات بيوتهن باللبن، وكذلك عيد نزول التوراة.

كانت الأطعمة والمكسرات هي سيدة هذه الأعياد، فكانوا يأخذون لجيرانهم من المسلمين هذه الأطعمة والمكسرات.

أما يوم السبت، فكان استثنائياً عند يهود هولير، هذا العيد كان يوم راحة تامة، لا يشعلون فيه ناراً في البيت، ولايطبخون طبخاً، ولايصنعون شاياً، ولايوقدون مصباحاً.

كانوا يأكلون ما في البيت من طعام بارد، وعندما يريد أحدهم أن يشرب شاياً، يذهب ويشربه عند جاره المسلم، أو يوصي إبريقاً من المقهى.

كانت النسوة اليهوديات شهيرات بخياطة الملابس النسوية، وكذلك بصناعة بعض الأعشاب الطبية، وكانت النسوة الكورديات من جميع أنحاء هولير يتوافدن إليهن.

عندما نشأت علاقة محبة بين أبي وأمي، لم يكن أمامهما سوى الزواج خلسة والتواري عن الأنظار عدة أشهر ريثما تهدأ الأمور، وبعد نحو سنتين من زواجهما، يبدو بأنها اقتنعت بالدين الإسلامي، وأشهرت إسلامها، وعندما ذهب أهلها إلى إسرائيل، أصرّت على البقاء مع زوجها وأولادها.

لبث كاروان بجانب صديقه حتى ساعة الغروب، عندئذ ودّعه وهو يتمنى له الشفاء العاجل كي يعود إلى زيارته في المحل كما كان.

ودّعته آفان إلى باب الشارع وهي تشكره على زيارته، وعلى

تفضله بإعطاء بعض دروس اللغة، وطلبت إليه أن يعيد الزيارة.

للتو أيقن أنه لم يعد بمقدوره الخروج في أي وقت يشاء كما كان، وأنه ينتظر حتى يتماثل للشفاء، وتعود إليه عافيته كي يستطيع أن ينهض دون أن يعينه أحد، ويقف على قدَميه، يمدّ خطواته إلى حيث هولير التي غلبه الشوق إليها.

عندما يتجوّل في طرقات هولير، فإنه يشمّ رائحتها، عندما يقف بجانب القلعة، ينتابه إحساس بأنها تلقي عليه النظرات من إحدى نوافذها.

الآن يستلقي في الفراش بمفرده بانتظارأن تفتح الباب، وتدلف كعادتها مثل فراشة، ينظر في عينيها، في وجهها، يستنشق رائحتها عن قرب.

الآن، الآن فحسب أدرك أن قوة المرض تفوق قوة الإنسان، وأنه غدا بالفعل رهين قيد جبروت المرض.

بدأت الأيام تمضي عليه متثاقلة، كل يوم يسلّمه لليوم التالي، وآفان تضاعف عنايتها به، تهيئ له كل طقوسه، تعينه ببطء شديد على النهوض يوماً إثر يوم، ثم يتكئ عليها ويمد خطواته ببطء، ثم يزيد قليلاً في المشي، يخفف من إتكائه عليها شيئاً فشيئاً لأن من شأن ذلك أن يسرع في قيامه من الفراش، والجلوس في الغرفة كخطوة أولى من خطوات الخروج من البيت بمفرده بشكل متدرّج كما أوصاه الطبيب الذي جاء بعد أسبوع، وفك عنه لصقة

العملية.

ألقى عليه السلام و قال له: لاشيء سوى أنها مرحلة من مراحل العمر وتمضي.

هزّ رأسه متمتماً: تمضي يا دكتور كما يمضي غيرها.

ثم باشر على الفور في رفع اللصقة بسحبة واحدة سريعة مسبباً له بعض الألم.

هذا كل شيء الآن، إذا شعرت بأمر غير اعتيادي، لاتتردد من الاتصال بي مهما كان الوقت.

قالها الطبيب وخرج متمنياً له الشفاء العاجل.

* * *

هولير، ياسيدة أرض الرب المباركة

هولير، يا أنيسة الدنيا في وحشة الزمن

إنها المرة الأولى التي يرتعش فيها القلب كعصفور وحيد مبلل بقطرات الندى ساعة الفجر.

أين أنت الآن يا هولير

زاد الحنين إلى كل ذرة تراب من دروبك

طاف الشوق إلى كل حمامة ترفرف في طلاقة هواءك

ليت قلبي حمامة تفر من بين جوانحي للحظات، وتلقي نظرة توق إليك، تطوف فضاءاتك فضاءً فضاءً، تجوب أحياءك حياً حياً، تتأمل أشجارك شجرة شجرة.

تنفذ إلى مخدعك كما نفذت حمامة داوود.

أمستلقية أنت في هذه اللحظات

أم باركة تستأنين بلؤلؤ الفراغ

أم أنك تتوضئين برحيق ياسمين شجرتك المفضلة، وتصلين خمسين ركعة شكر لربك المجيد.

هـ

و
ل
ي
ر

ذات العلامات الذهبية الخمس في أبجدية الكورد

أورقت أنامله ورواداً وهي تعانق درّة القلم لتخط أعذب حروف الهجاء التي أبدعتها البشرية.

تألق القلم عطراً وهو يتبرّك بتدوين لآلئ جوهر حرف القرآن المجيد.

كل حرف يتلألأ ربيعاً أمام ناظرَيه

كل حرف يغتني بخصوبة وقع عذوبة موسيقاه

حرف الهاء:

يا لهائها... وهي تقف مقام القلب، تمدّ أخواتها بشهيق وزفير الحياة.

حرف الواو:

يا لواوها... وهو يلي أخته بحياء شديد، يشدو بأرق ما سمعته أذن من إنشاد.

حرف اللام:

يا للامها... وهو يتوسط بحكمة كجبل سحري يبعث شعاع دفء روح الحكمة يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً.

حرف الياء:

يا ليائها... وهي متزنة تمد بشريانها سائر البدن بكريات دم كوردي.

حرف الراء:

يا لرائها... وهو يتخذ منزل ضفة المساء، حيث تستأنس وتتسامر في أرجاء دوحتها حروف أبجدية الكور السرمدية في مساءات النشوة.

*　　*　　*

بعد قضاء عشرين يوماً، رأى بأنه يستطيع الخروج برفقة عائلته إلى أماكن قريبة، فطلب من آفان أن تهيء الأولاد كي يخرجوا.

عندئذ تقافز الأولاد فرحين، ومعبرين عن مساحة شوقهم إلى الحدائق القريبة، واللعب فيها مع أطفال الحي.

تذكر كل تلك الحدائق التي دخلها حديقة حديقة ومارس فيها الرياضة، أخذ أطفاله إليها، حيث تكثر هولير بالحدائق التي عادة تكون مناصفة بين الكبار، وبين الأطفال بحيث يجد الأطفال ألعابهم ومراجيحهم، ويجد الكبار وسائل ممارسة رياضتهم.

قال لآفان: أتعلمين بأنني مثل الأطفال اشتقت لممارسة الطقوس في الحدائق.

قالت: كل شيء يأتي في وقته المناسب، لكن عن جد، الأولاد غلبهم الشوق إلى اللعب في الحدائق مع الأطفال.

قال: طالما قلتُ لكِ ذلك وطلبتُ منكِ أن تأخذيهم على الأقل إلى أقرب حديقة إلينا.

قالت: ياه، بهذه البساطة الشديدة تقولها.. سأتركك وحيداً وآخذ الأولاد إلى الحدائق.

لتعلم أن لاحدائق في الحدائق دون أن تكون معنا، كل مكان نتجه إليه معاً يكون حديقة بالنسبة إلينا.

عندما مدّ خطواته الأولى إلى الشارع، بدأ يستنشق الهواء بعمق كما لو أنه كان غائبا عن هذه الأجواء سنة.

بات يمعن النظر في كل شيء تقع عيناه عليه.

بساطة الناس وهم يرتدون ثيابهم الهوليرية الفضفاضة، ويملأون الطرقات، يجلسون أمام أبواب بيوتهم وهم يسبحون بمسابحهم الطويلة، لفتت نظره المسابيح الطويلة التي عادة تكون بأيدي الهوليريين وهم يمشون في الشوارع، يتجهون إلى المساجد. لذلك جعلوا لمفاخر أنواع المسابيح سوقاً عند جامع القلعة، يجتمعون، وينتقون أشكال وألوان ونفائس هذه المسابيح.

ما أكثر المساجد في طرقات هولير، عندما يحين موعد الآذان، يبدو الوقت وكأنه وقفة العيد، حيث يتعالى التكبير، وتصدح حناجر المؤذنين وهي تنادي الناس إلى الصلاة.

جامع القلعة الكبير، جامع شيخاني، جامع السوق الكبير، جامع سوق النجارين، جامع المفتي، جامع قبلة خوار، جامع خانقاه الخالدية، جامع كورجي، جامع ديرة بروشة، جامع بستة بيازة، جامع آزادي، جامع المرادية، جامع أسعد أفندي، جامع آلتى برماغ، جامع ملا عابد، جامع باليساني.

إضافة إلى الجوامع الصغيرة المنتشرة بكثرة في الأحياء،

والضواحي، والأرياف، وهي مساجد حديثة صغيرة الحجم، أنيقة البناء قام بإنشائها بعض الميسورين.

لمس أن طابع التديّن يغلب على أهالي هولير، أناس يركنون إلى سكينة الإيمان، يمارسون طقوس عبادتهم دون أن يجنحوا شطر معرج من معارج الغلو.

عندما يحل شهر رجب، فإنهم يبدأون بصوم ما يستطيعون من أيامه كتهيئة لاستقبال شهر رمضان ويرددون:

هه ر أيلار رجب أولماز

أولور سا عجب أولماز

لوقمه وه حرام قه طمه

دوعاو مستجاب أولماز

وعندما يحل شهر شعبان، يعتقدون بأن صوم النبي زكريا كان أول يوم الأحد من الشهر، فوهبه الله ابنه يحيى، ولذلك يصوم مَن يرجو الله أبناء، وعندما يهبه الله رجاءه، فإنه يداوم على صيام هذا اليوم من السنة دوماً.

يتكون الإفطار في صوم هذا اليوم من سبعة أنواع من الطعام، ويتم تصنيع الخبز من الشعير، وجلب ماء الشرب من البئر.

أما في ليلة النصف من شعبان، يتجول الأطفال وهم ينشدون الأغاني الدينية، ويتجه الرجال إلى المساجد ، وكذلك تتجه النسوة.

وعندما يحل شهر رمضان يستقبله الهوليريون بالابتهاج وهم يرددون:

كه نه كالدي رمضان

اجيلدي قره قه زان

رمضان قره قه زان

مو للار ويرر أزان

كل شيء يمضي في منهج المجتمع المحافظ، عندما تتزوج الفتاة، تأخذ معها قرآنا إلى بيتها الجديد كي تستمر حياتها مع القرآن، وكأنها وصية والديها حتى لا تنقطع عن القرآن بخروجها من البيت، وكذلك حتى تعلّم أولادها قراءة القرآن في المستقبل.

ثم قبل خروجها من بيت أهلها، تخلع مسماراً من أحد جدران البيت كعلامة بعدم عودتها إلى البيت بشكل دائم سواء مطلقة، أوعلى زعل.

يترعرع الطفل الهوليري على هذه الطقوس، فمنذ اليوم الأول لولادته، يكون القرآن قريباً منه، بحيث يتم وضعه بجانب

وسادته، أو يتم وضعه على أقرب حائط إليه.

وإذا رأت الأم أنه تأخر في المشي، فيتم ربط قدميه بخيط رفيع، وعند صلاة يوم الجمعة يتم اصطحابه إلى الجامع، وعندما تنتهي الصلاة، يتقدم إليه أول الخارجين من الجامع، ثم يقطع الخيط، وهو يمسك بيده ويخطو به خطوات أولى نحو المشي.

حتى الكتابات التي تزدان بها الواجهات، فإنها تصر على الحرف القرآني، استطاعوا أن ياخذوا من الإسلام وسطيته، وقد قدموا لأمة الإسلام رجل الفتوحات الإسلامية الهوليري صلاح الدين الأيوبي الذي انبثق من ظهرانيهم إلى رحابة العالم الإسلامي.

عندما يأتي شهر شعبان، يؤجلّون فيه ما أمكن الزواج، ويتجنبون الزواج في هذا الشهر، كما يمتنعون فيه من الختان، ويسعون كي لا يقيموا بيتاً جديداً، أو حتى ترميم بيت قديم، أو القيام بطلائه في شهري محرم وصفر، كما لا يستحبون الانتقال إلى بيت جديد في شهر صفر.

في اليوم العاشر من شهر محرّم، يقومون بتوزيع الهريسة.

يمارسون طقوسهم الإسلامية على جناح المذهب الإعتدالي دون أن يجنحوا شطر الغلو قيد أنملة.

عندما يحين موعد الصلاة، يتجه الهوليريون من كل صوب وحدب إلى المساجد، يصلون صلاة الجماعة، وترتفع أصوات

الأئمة من المساجد يوم الجمعة وهم يخطبون في الناس باللغة الكوردية ذلك أن جانباً كبيراً وعلى الأخص الشبان لا يجيدون العربية، فيقرأ الإمام آيات قرآنية باللغة العربية، ثم يباشر في ترجمتها وشرحها باللغة الكوردية.

باتوا يمثلون وسطية الإسلام ، لذلك لبثت هولير محافظة على عراقة تقاليدها وهي تشرع نوافذها لرياح حداثة الدنيا، وليس بمقدور أي فقيه هوليري أن يقنع شاباً هوليرياً كي يجنح به شطر الغلو ليجعل من بدنه قنبلة موقوتة في أناس مهما كان انتماء هؤلاء الناس، لأن نظرة الإنسان بالنسبة إليه هي الغالبة، الإنسان أولاً، إن فكرة إلحاق أذى بالآخرين بالنسبة إليه هي فكرة مقيتة، لذلك يرى أن السيارات عندما ترى شخصاً يود العبور مشياً على قدميه، تقف وتشير له بالعبور لأن الأولوية للإنسان الذي يمضي على قدميه.

إنه ينعم بوسطية الإسلام، ووسطية الإنفتاح على أرجاء العالم التي تحقق له بهجة الإستمتاع بممارسة ألق إنسانيته والإرتقاء في مدارجها ولسان حاله يشدو:

أنا هوليري

أأبى أن أكذب أو يُكذب علي

أنا هوليري

أأبى أن أعتدي أو يُعتدى علي

أنا هوليري
أأبى أن أخدع أو يُخدع بي
أنا هوليري
أحلم أن اعيش حراً طليقاً دون قيود
أحلم أن يكون هذا الفضاء لنا جميعاً كما لو أننا أسراب حمام
أنا هو ليري
أتوسد وسادة السلام
وألتحف لحاف التآخي

تجلو له عبقرية البساطة الهوليرية بأرقى معالمها في أواصر العلاقة الاجتماعية بين هذا المجتمع، ومفهومه لروح العلاقات الإنسانية.

عندما بلغت بهم الشدائد ذروتها، لم يبق أمامهم سوى أن يتآزروا ويتحولوا إلى أسرة واحدة تعيش في بيت كبير واحد، شأنهم في ذلك شأن منطقة تعرضت لإعصار، فلم يبق أمام سكّانها سوى أن يتكاتفوا ويجتمعوا في كتلة بشرية واحدة ليشكلوا قوة يستندوا إليها.

كل واحد منهم أصبح عليماً بما وقع للآخر، وكل واحد بات على دراية بما ألمّ بالآخر.

لفت نظره بقوة أن الناس هنا يعيشون حالة تآخ حقيقية فيما بينهم، ولذلك يكثر تداول كلمة التآخي، ويتم إطلاق كلمة «برايتي» بكثرة على المحال والأماكن، وبعض التجمعات.

أوصلتهم الكوارث الإنسانية المريعة التي بلغوها إلى قناعة بأن أيّ عيب في فرد منهم هو عيب لهم جميعاً، وأي ضعف في أحدهم هو ضعف لهم جميعاً، وأي قوة في أحدهم هي قوة لهم جميعاً.

استطاعت هذه المحن أن تجعلهم في حالة تجاوز لمركب الدونية، وعُقدة الفوقية، فغدا المجتمع في حالة نرجسية إيجابية عامة كما لو أنه شخص واحد، وقد بلغوا يقيناً بأن لا أحد منهم يمكن أن يكون في معزل عن الآخر، لذلك لاحظ أنهم لايستهزئون ببعضهم البعض، ولايقللون من شأن بعضهم البعض.

هذا بذاته حدّ من هيمنة السلطة عليهم، وحدّ من رضوخهم لهيمنة السلطة التي ينظرون إليها كوظيفة سياسية مثل أي وظيفة أخرى في المجتمع، فكانت فكرة تقاسم السلطة نتيجة هذه الخصوصية التي يتمتع بها هذا المجتمع، إذ لم تعد السلطة حكراً على حزب دون غيره، وباتت أشكال المعارضة تمارس نقدها اللاذع وهي تستند إلى قوة المجتمع.

توقفت به قدماه عندما رأى عبوة فارغة في منتصف الطريق،

انتظر حتى خلا الطريق من السيارات، وراح يحملها، ويضعها في حاوية.

حتى أن «سيروان» عندما أراد أن يبول، نهاه عن فعل ذلك في زقاق، وأخذه إلى مراحيض أحد الجوامع القريبة.

حينها خطر له أنه لم ير أحداً يتبوّل في الأزقة، لم تقع عيناه على شخص قط يقف وهو يتبوّل على حائط في خلاء كما كان المنظر يتكرر أمام ناظرَيه في أماكن عديدة.

أدرك أن ذلك يمسّ وتراً من منظومة الحياء الإجتماعي العام لكينونة المجتمع، فباتوا يعدّون ذلك خدشاً لحياء الهوليريين العام تجاه أنفسهم، ثم تجاه بعضهم البعض، ثم تجاه ضيوف وزوّار هولير في حالة حياء وغيرة على هيبة مدينتهم.

كما أن المرء لا يفعل ذلك على جدران بيته، ويتجه إلى بيت الخلاء، فإنه كذلك لا يفعلها على جدران مدينته ويتجه إلى مراحيضها.

لفت نظره أناقة المراحيض وتمتعها بكل التقنيات الحديثة، وأنه لم يجد أشخاصاً يقفون على أبواب هذه المراحيض لتحصيل أجرة الخلاء كما كان يرى في أماكن عديدة.

بحلول المساء يأتي عمال النظافة الذين هم على الأغلب من سريلانكا، أو بنغلادش، ببشراتهم السمراء، وبزّاتهم البرتقالية، يقومون بتنظيف الأسواق والطرقات، ويحققون رواتب جيدة

لعائلاتهم التي تأتي معهم للعيش حيث يعملون، فيرى النساء السمراوات وهن يتجولن ويتسوقن ويقمن في بيوت المدينة.

عندما يحل المساء، ويفرغ عمال النظافة من تنظيف المدينة، يخرج الهوليريون من بيوتهم إلى ساحات أحيائهم، حيث يشكّل كل حي إمارة مستقلة عن غيرها.

في شورش، حيث بهاء المطاعم الممتدّة على طول الطريق الذي يصل إلى جسر شورش، يجلس الناس في جلسات سمر وهم يتناولون «الشاورما» وأطباق الحلويات، والمثلجات، وأصناف ما طاب من طعام، وما لذ من شراب، ويكتظ الطريق العام بمحلات بيع الخمور، فيقبل الناس من الأحياء لشراء ألوان وأصناف الخمور، يقبلون فرادى وجماعات، على أقدامهم، وبواسطة سيارات عامة وخاصة، تكتظ المحال بالناس الذين يتوافدون لشراء الخمور المستوردة من كل بقاع العالم وفق أسعار متدرجة، ثم يقبلون على شراء علب الطون والسردين، واللحوم المثلجة، والمكسرات، والبطاطا المجففة، والمخللات، يحملونها في أكياس وينصرفون.

عندما رأى نفسه قريباً من سوق «لنكة» على شارع الأربعين، دخله من إحدى بواباته، وصار يتنقل برفقة عائلته بين تفرعات قيصرية هذا السوق الضخمة الذي يحتوي على مئات المحال المتخصصة بكل ما يمكن للمتسوّق أن يحتاجه، بما يخطر في باله أو لا يخطر في باله.

إنه يشكل مدينة مختصرة في قيصرية كبرى، حيث يمكن للداخل أن يعثر على ما يشاء وهو يمر بجانب محال الذهب، والألبسة، والأدوات المنزلية، والإلكترونيات، والأغذية، في زحام لكافة فئات المجتمع الهوليري.

أحياناً كان يدخل من مداخل شارع المئة متر، فيخرج من أحد مداخل شارع الأربعين، أو من أحد الفروع الشمالية بين الشارعين لأن الجانب الجنوبي لهذا السوق مغلق.

ما يميز هذه الأسواق الهوليرية الضخمة، أنها لاتُشعر الداخل إليها بتكرار الدخول حتى لوكان صاحباً لأحد محلاتها يداوم على عمله بشكل يومي، فكل يوم يغتني بألوان جديدة من الناس، والبضاعة، والإشراقة، وكأنها تُبعث على رأس إشراقة كل يوم من جديد.

كلما يدخلها المرء، يتذوق نكهة أنه يدخلها للمرة الأولى، ويمكن له أن يرى شيئاً جديداً لم يره من قبل.

لدى خروجهم من السوق ووصولهم إلى شارع المائة متر، وقف على الطريق بانتظار سيارة كي توصلهم إلى مجمّع «فاميلي مول»، وقال لزوجته بأنهم سيتناولون بهذه المناسبة الغداء هناك.

قالت له بأنها ترى أن يأخذوا دجاجة مشوية إلى البيت خير لهم من تكاليف تناول الغداء في هذا المجمع الذي سبق وأن تناولوا فيه

غداء وعشاء مرتين، وكانت الأسعار باهظة لا تختلف كثيراً عن مطاعم الفنادق ذات النجوم الخمس.

بيد أنه تمتم لها: ولايهمك ياسيدتي، ليست مشكلة إذا تناولنا وجبة طعام في مثل هكذا محل في الشهر، أو الشهرين مرة واحدة.

تفاجأ بوقوف سيارة بجانبهم وفيها ركاب، وبعد قليل نزل منها شخص واتجه إليه. نظر إليه وقد عرفه للتو، دنا إليه الرجل محتضناً إياه، ثم ألقى السلام على آفان، وراح يقبّل الأطفال.

حينها سألته آفان: ما أحوال جين ؟

قال: جيدة

قالت: ماذا تفعل هذه الأيام ؟

ضحك الرجل وقال: حوّلت غرفة من البيت الذي استأجرناه إلى دكان للخياطة النسائية، لا يفضى البيت ليلاً نهارا من النساء.

ضحك قائلاً: فرصة لك يارجل، قد تجد لأبيها زوجة مناسبة من نساء كوردستان.

توقف قليلاً، وقد علت غصة إلى حنجرته، فاعتذر قائلاً: منذ متى وأنت في هولير ؟

قال: بقينا شهراً في مخيّم دوميز، ثم جئنا إلى هنا، تعرفتُ بصاحب هذا التكسي، ومن يومها أعمل عليه مناصفة.

ثم قال وهو يقدّم إعتذاره للركاب: أرجوك انتظرني، المكان قريب، سأوصلهم وبعد عشر دقائق أكون عندك.

وافق على ذلك، فانطلق «جنكدار» بشيء من السرعة.

قالت: يبدو أن أحواله تحسّنت، أظنه لم يكن ثملاً.

قال: أعانه الله، كانت صدمة قاسية بالنسبة إليه.

لم يتأخر الرجل، فقد عاد مسرعاً، وطلب منهم الصعود.

قال: شكرا ياجنكدار، أنا سعيد برؤيتك، وبهذه المناسبة أدعوك مع جين كي تتناولا معنا طعام الغداء في «فاميلي مول».

قال: سأوصلكم من عيني، لكن اعذورنا من تناول الغداء.

قالت آفان: اشتقت لجين فعلاً، وأريد أن أراها.

قال: مادام الأمر كذلك، أمري لله يا أم لاوين.

عندما أوصلهم، قال بأنه سيعود إلى البيت، ليحضر جين.

لدى نزولهم من السيارة، ألقى نظرة إلى البناء الضخم، ثم اتجهوا جميعاً يصعدون الدرج نحو الباب.

بدا المكان كرنفالياً أمام ناظرَيه كما لو أنه في يوم افتتاح، تجولوا الطوابق والأجنحة، ابتاعت آفان بعض اللوازم النسائية لها، ثم جلسوا في كافيتريا، تناولوا بعض العصائر والمثلجات، وانطلقوا إلى حيث وقع اختيارهم على مطعم من مطاعمه

المتعددة.

عند جلوسهم، اتصل به جنكدار، فأرشده إلى موقع المطعم.

بعد قليل دخلا، فألقت الفتاة بنفسها في حضن آفان وبدأت تبكي بحرقة، بادلتها البكاء، ثم تباوستا بحرارة، وبعذ ذلك ألقت عليه السلام: كيف صحتك يا أبا لاوين ؟

شكرها قائلاً: بخير.

قالت : تفاجات بأبي يعود إلى البيت في غير وفته ، وأخبرني بأن هناك مفاجأة سارة لي ، وعلي بالإستعجال للخروج .

كانت هناك ثلاث نسوة من أجل خياطة ثيابهن ، قدّمت لهن إعتذاري وجئت مسرعة .

ثم نظرت إلى أبها وهي تقول : طوال الطريق ألححت عليه كي يخبرني عن المفاجأة ن فلم يفعل حتى رأيتك ، حقاً هي مفاجئة سعيدة لي .

قالت آفان : عندما رأيته ، قلت في نفسي : هما التقيا ببعضهما ، ولن أتركهما قبل أن نلتقي نحن

أيضاً .

عند تناول الطعام قال له: لكن ألم تجد صعوبة في نقل الركاب وأنت غريب عن المدينة ؟

قال: أمضى صاحب السيارة أسبوعا معي حتى أرشدني إلى

الطرقات، لكن عموماً بعد أن حفظت مسارات الشوارع الرئيسية في هولير، شارع المائة متر، وشارع الستين متر، وشارع الأربعين متر، وشارع الثلاثين متر، تيسّرت الأمور بالنسبة لي مادمت قد حفظت مسارات ومدارات هذه الشوارع الرئيسية الطويلة التي تؤدي فيما بينها إلى الأجزاء الرئيسية من المدينة.

بعد ذلك بدأت طلبات الركاب تتكرر، نادراً ما أذهب الآن في طلب لم يسبق لي أن ذهبت إليه ، أو إلى موضع مجاور منه .

بعد تفرغهم من الطعام، تناولوا الشاي، ثم أعادهم جنكدار إلى البيت.

عندها دعاهما للدخول، فلبيا الدعوة وجلسا نحو نصف ساعة تناولا فيها قهوة، ثم خرجا.

مضى النهار حافلاً دون أن يشعر بمرور ساعاته، عندما انتبه إلى بوادر الإرهاق على الأولاد ، قال : يبدو بانهم يحتاجون إلى الراحة .

قالت آفان:ليس هناك أفضل من النوم الآن بالنسبة لنا جميعاً .

عندئذ استرخى على إسفنجة، وأخذته غفوة استمرت حتى الثامنة مساء، حيث نهض الأطفال، ونهضت آفان.

أشغل التلفاز، بينما راحت زوجته تعد له فنجان القهوة.

في المساءات تجذبه هولير للمشي في طرقاتها وهو يحمل بيده

جهازه الخلوي، يستمتع بسماع الأغنيات ، أو بعض المقاطع الموسيقية، يمشي وهو يستمع حتى تفرغ البطارية من الشحن، أحياناً يجلس في بعض مواقف الكوسر، وأحياناً يجلس في بعض الحدائق.

وقت يتمتع بمزاياه في مساءات هولير الحالمة ، حتى سماع الأغنيات والموسيقى يغتني بمذاق خاص وهو يمضي وحيداً، وكأنه يكتشف ملامح الطرقات أول مرة.

عندما يعود إلى البيت، يحمل معه للأطفال ما يسرّهم من طعام، حيث يهرعون إليه، وكأنه كان غائباً لمدة سنة، وهو كذلك يقبلهم بشوق وكأنهم كانوا غائبين عنه سنة.

يعطيهم حصصهم من المغلفات، ويجلس وهو يستمتع بالنظر إليهم وهم يحتفلون بفض الأغلفة.

*　　*　　*

فتح عينيه مع سماع رنين هاتفه الخلوي، ثم ألقى نظرة إلى الساعة، فوجدها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، تسربت منه نظرة إلى الإسم الذي ظهر على شاشة الجهاز وهو يهم بفتح الخط، فتفاجأ باسم صديقه الدكتور«سليفان».

فتح الخط على عجل وقد استبدّ به قلق، فترامى صوت صديقه إلى سمعه: أعرف بأنني أيقظتك من النوم، لكنني سأكون مع زوجتي وابني بعد نحو ساعتين ونصف في هولير، وقبل كل شيء سنأتي إليك كي أضعهما وأخرج لأنني في عجالة من أمري.

قال: ماذا حدث يا صديقي ؟

قال: يبدو أن حادث سير قد وقع لعائلة، وأن وضعهم حرج للغاية فاتصلوا بي من المشفى هناك كي ألحق بهم.

عندما أغلق السماعة، اتجه إلى الغرفة الكبيرة، لكنه تردد من مناداة زوجته لأن الوقت مبكر، ويمكنها مواصلة النوم بعض الوقت.

عادت به أدراجه إلى المطبخ، صنع كأساً من الشاي، وعاد إلى غرفته يجلس، وقد مدّ يده إلى كتاب وشرع في تصفحه.

بعد نحو ساعة ونصف، نهض مرة أخرى، ونادى زوجته، فتحت المرأة عينيها وألقت نظرة إلى الساعة قائلة: الوقت مبكر، هل تحتاج شيئاً ؟

قال: لا عزيزتي، لكن صديقنا الطبيب سليفان مع عائلته سيكونون بعد نحو ساعة عندنا.

هبّت المرأة وقد استوت جالسة في الفراش: خير إن شاء الله.. في هذا الوقت المبكّر؟!

قال: هناك حادث سير وقع في منتصف الليل، وقد اتصلوا به من أحد المشافي هنا كي يأتي في حالة إسعاف لأن وضعهم حرج، ويبدو أن أحد الأطباء نصح إدارة المشفى للاستعانة بخبرته.

أعدّت آفان البيت لاستقبال ضيوفها، وبعد قليل رنّ جرس هاتفه، قال: يبدو بأنهم وصلوا.

فتح الخط قائلاً: أهلاً وسهلاً عزيزي، الحمد لله على سلامتكم.

قال سليفان: شكرا، وصلنا للتو، ونحن عند جسر عنكاوا، أين نتجه الآن ؟

قال: على شارع الأربعين، بجانب سوق لنكة، سأكون واقفاً على الطريق.

أغلق الخط، وخرج من البيت، وبعد نحو ربع ساعة رأى صديقه حيث تتقدم سيارة أجرة سيارته لإرشاده إلى العنوان.

صعد بجانبه، وقد ألقى السلام عليه، ثم التفت إلى زوجته قائلاً: الحمد لله على السلامة مدام روني.

قالت: الله يسلمك، كيف حال آفان ؟

قال: مبسوطة. ثم قال: كيفك برهام ؟

ابتسم الطفل قائلاً: تمام عمو

قال الطبيب: لولا هذا السائق الذي أرشدني من جسر عنكاوا لما وصلت هنا قبل ساعة، أنا في عجالة، لابد أن ألحق المشفى، إنهم يتصلون بي كل ربع ساعة .

عندما وصلت السيارة بجانب الباب، كانت آفان واقفة بانتظارهم، قال سليفان: صباح الخير مدام، نأسف على الإزعاج في هذا الوقت.

قالت: نتشرف بكم في أي وقت يا دكتور.

أنزلهم أمام الباب، وأدار السيارة بسرعة صوب المشفى.

استقبلت آفان المرأة بالقبلات، ودعتها للدخول باحتفاء حار قائلة: تفضلي حبيبتي، البيت بيتك.

دخلت مع ابنها قائلة بأنها محظوظة بهذا اللقاء الثاني الذي يجمعهما.

قالت آفان مبتسمة: أنا سعيدة بهذا اللقاء ياروني، لقد أحببتك يا عزيزتي عندما رأيتك أول مرة في مخيم دوميز.

لبث الطبيب غائباً حتى بلغت الساعة الثالثة عصراً، حينها عاد وقد بدت عليه آثار الإنهاك قائلاً بأنه وصل في الوقت المناسب، وأجرى على الفور عمليتين جراحيتين واحدة لصبية في السادسة عشرة من عمرها، والثانية لطفل في الخامسة من عمره، أمّا ما تبقى من العائلة فلم تبلغ حالاتهم درجات الخطورة المتقدمة كهاتين الحالتين، حيث تم بتر ساق الأب، وبعض العلاج من قبل المشفى للأم.

ثم أردف يقول: كان الأب هو الذي يقود السيارة عائداً مع عائلته من سهرة عند أحد الأقرباء، وفي الطريق اصطدم بسيارة كانت واقفة في الطريق مما أدى إلى قلب السيارة.

ارتاح الطبيب قليلاً في الغرفة التي تم تخصيصها لهم، ثم خرج، استحم وجاء ليتناولوا طعام الغداء الذي تأخّر.

قال: يبدو بأنني سأضطر للبقاء هنا يومين كي أشرف على وضعهما، وبعد ذلك سنعود.

قالت آفان: هذا من حظنا كي تكون لي فرصة لأحتفي بصديقتي الغالية.

شكرتها المرأة قائلة: هذه هي إحدى محاسن الأزمات، يتعرف الناس فيها على معادن بعضهم البعض بشكل جيد .

قال: ماذا حصل معك ياصديقي، هل تفرّغت للقراءة كما كنت تحلم ؟

فال: يمكنني القول بأن جزءاً من حلمي تحقق، لأنني تفرّغت جزئياً للقراءة، فتحت عيادة إستأجرتها، أداوم فيها فقط في الفترة المسائية من الرابعة حتى الثامنة.

مساء، أمّا العمليات الجراحية فقد اقتصرت على إجراء عملية واحدة في الأسبوع، إلاّ إذا حدث وضع إستثنائي كهذا.

في صبيحة اليوم الثالث الذي تهيأوا فيه للعودة إلى دهوك بعد تناول طعام الإفطار ، تلقى الطبيب اتصالاً من أحد أقرباء المرضى، وبعد أن أغلق طلب من صديقه أن يصطحبه إلى الموقع لأن بعض أهل المرضى يريدون زيارته في البيت بعد أن أصرّوا على ذلك.

خرج مع صديقه، وفي الطريق قال له: يبدو بأنهم يصرّون على إعطائي أجري دون أن يعلموا بأن ذلك يسبب لي حرجاً، ألا ترى ذلك معي يا صديقي ؟

قال: مؤكد، لأنك ضيف، وكيف للضيف أن يأخذ أجر خدمة قدّمها لمستضيفه.

قال: لقد حاولوا عن طريق مدير المشفى ، فقلت له وجهة نظري التي اقتنع بها الرجل، وأبلغها لهم، لكنهم عادوا وعرضوا علي ذلك في المشفى، فقلت لهم: حتى تقاليدنا الكوردية لا تسمح لنا بذلك، لو جئتم إلى عيادتي، لكان الأمر مختلفاً، لكنكم استنجدتم بي كي أقدم لكم عوناً، وأحمد الله أن العمليتين تكللتا بالنجاح.

بعد قليل وقفت سيارة وفيها ثلاثة أشخاص، ثم حضروا إلى البيت، وبعد جلوسهم قال أحدهم بأنه شقيق صاحب العائلة التي وقع لها الحادث، ومدّ مغلفاً إلى الطبيب، فكرر الطبيب رفضه القاطع قائلاً: بأن عليه أن يقبل ما قام به هدية من أخ لأخيه، وعندما يصرّ على ذلك، فهذا يعني بأنه لا يقبله أخاً.

عندها فقط أعاد الرجل المظروف وهو يقول: لقد غلبتني يا دكتور.

ثم خرجوا بعد أن تناولوا شاياً وقهوة.

بعد ذلك طلب من صديقه أن يأذن لهم بالعودة، فقال بأنه لايأذن بها إلاّ بعد برنامج وضعه، وهو أن يأخذهم في جولة ليروا مدينة هولير بشكل جيد، ثم يأخذهم إلى القلعة، وبعد ذلك يعودوا إلى البيت، يتناولوا الغداء، وحينها تكون لهم حرية المغادرة.

عندما نظر إلى زوجته، أشارت له بأن آفان أقنعتها بالفكرة،

وهي موافقة لأنهم بالفعل أتوا إلى هولير دون أن يروا شيئاً من معالمها.

عندما شارفت الساعة إلى التاسعة والنصف ، انطلقوا بسيارته يجوبون بعض الأماكن، ويأخذون بعض الصور التذكارية، ثم اتجهوا إلى القلعة.

قال: هولير مدينة هادئة، يمكن للمرء أن يقضي فيها وقتاً هادئاً، إنها تحفل بكل مقومات الراحة والإستقرار.

قال الطبيب: لمست شيئاً من ذلك.

قال: إن سمعت كلامي، دعك الليلة هنا، وسآخذك إلى مكان يستحق أن تبقى من أجله.

قالت روني وقد لفتت انتباهه بأنها سمعته: كلامك يغرينا بالبقاء الليلة، معه حق ياسليفان، أنت متعب، من الأفضل أن تأخذ شيئاً من الراحة قبل هذه العودة، لأنك تسوق السيارة بنفسك.

قال: والله معك حق عزيزتي، حتى من الناحية الصحية، هذا غير منصوح، ويُستحسن أن أكون مرتاحاً بشكل جيد، حتى أستطيع أن أقود بشكل جيد ، ثم أضاف ببسمة : وأستمتع بالقيادة أيضاً .

عندما بلغت الساعة الواحدة والنصف، عادوا، تناولوا الغداء، ثم استراحوا في قيلولة، وفي الثامنة مساء أخذهم إلى حديقة

فاميلي مان.

دخلوا الحديقة وبدأوا يتنقلون في أرجائها من مكان إلى آخر، فقال الطبيب: يبدو لي بأنني في مدينة أوربية. شيء رائع، كل ركن من أركان هذه الحديقة جاء بشكل متقن مدروس، بالفعل معك حق، أنا سعيد بالتعرف إلى هذه الأجواء.

استغرق التجوال نحو ساعتين ونصف، ثم تناولوا العشاء في أحد مطاعم الحديقة، وعادوا.

في الصباح، نهضوا، وبعد تناول الإفطار، خرجوا، صافح صديقه، كما بدأت الزوجتان في تبادل القبلات، وبدا برهام مودعاً الأطفال.

* * *

هه و لير

باغته إحساس في هنيهة إدهاش غامرة أن قلبه قفز من صدره شطر الباب لحظة دخول طلّتها بسحرية كما لو أنها حمامة وقعت بغتة للتو من تنسيم جنان الخلد.

هه و لير

ترنّم كل حرف من حروف الإسم المبارك وهو يعزف على أرق أوتار قلبه حساسية.

هه و لير ..

هبّ واقفاً على قدمَيه، وقد فاضت عيناه بطوفان دمع، أشرق وجهه بمنارة رؤياها كما لم تدركه إشراقة كهذه من قبل.

ما أعظمك يا هه و لير

ثم في لحظات غافلة، لايدري كيف رأى نفسه في جنّة حضنها

غمره شعور بأنه يتنسّم أوج رائحة الفردوس

لم يسبق له أن لمس حضناً كحضنها

لم يسبق له أن استنشق رائحة بعبق طيب عبيرها

لم يسبق له أن تذوّق لذة عسل الشموخ، كما يتذوّق نفيس لذته من شغاف دفء حضنها.

ما أسماك يا عمري..

بات يتمسك بها بكل حواسه، ومدركاته، وحجم العرق الذي يتفصّد من كل مسامات جسده، وطوفان الدمع الذي يسيل من مقلتيه، ورعشات أنين صدى الحروف وهي تسري على رعشات أوتار قلبه.

بات كل وجله أن تدهمه لحظة مجنونة، فتتلاشى من بين يدَيه كما تتلاشى الثلوج من قمم الجبال.

تتوارى عن ناظرَيه كما تتوارى أصعدة الدخان من أحضان المحيطات.

قالت هامسة بشدو وهي تضمه إلى حضنها وتدس أناملها بين ثنايا شعره: أريدك أن تكون قوياً حتى في الحبّ.

بدأت الكلمات تتدرحرج على لسانه: ياه، يا لعظمة لذة الدموع وهي تنهمر من عينَي، لم يسبق لي أن استمتعت بذرف الدموع التي أخالها تنهمر من عضلة قلبي كما أستمتع بها الآن.

دعيني أبكي على كتفيك

دعيني أبكي وأنا أشم عطرك

دعيني أتحول إلى أوهن مخلوق في العالم

وأنا أحبك

دعيني أسمع سيمفونية نبرات صوتك

دعيني أحطّم كل القيود وأنا أحبك

دعيني أسمع رنين صمتك

أقرأ سِفر نظراتك

ما أعظم الوهن تحت مصباح وجهك

ما أعظمه وأنا أستمدّ من مفاصله قوة العالم.

رفع رأسه ببطء شديد، وبدا له أنه يهدي عينيه أعظم ما يمكن له أن يهديه لهما.

تأمل لآلئ أنوار وجهها لؤلؤة .. لؤلؤة.

للتو أدرك قيمة أن تسبح العينان في فلك الجمال، فتتمتمت الحروف على رعشات لسانه:

أنتِ..

أغلى..

من..

عمري..

يا..

هه..

و..

لير..

دعاها إلى الجلوس، فشكرته بلطف، وبركت بتؤدة على طرف من فراشه.

نظرتْ إليه، وقد استكان في الفراش قبالتها، هتفت كما لو أنها تهامسه:

هل تستمتع بمزايا نقاهة المرض ؟

دندن: كل مَن في البيت يدللني أكثر مما كان

همست: وأنت أيضاً ألا تدلل نفسك أكثر مما كنت ؟

أدرك أنها قصدت نزهته التي قام بها نهار البارحة مع عائلته إلى قلعة ديوين، هذه القلعة الغنية بالمساحات الخضراء، والأودية، والجبال، والمنعطفات.

كان ذلك عندما قرر مع زوجته قضاء يوم في الطبيعة بعد مكوثه الطويل في البيت.

قالت: الأولاد أيضاً بحاجة إلى نزهة كهذه.

عندئذ أدرك حجم المعاناة التي وقعت على بيرهات، ولاوين نتيجة هذا الاقتلاع القسري من وافع ترعرعا فيه، وبغتة وجدا نفسيهما في واقع جديد بكل مقومات حياته.

أدرك حساسية التعامل معهما من خلال دقة التربية التي يحتاجانها، وربما لذلك ينشب خلاف يأخذ شيئاً من التصعيد بينه وبين آفان في بعض المواقف ، فيشرح لها بأن بيرهات في مرحلة بالغة الحساسية تتشكل فيها ملامح وعيها، وهي تى أن الواقع الجديد أحدث شرخاً في النمط الذي نمت عليه، ولذلك تحتاج إلى عناية إضافية تكون بمثابة تعويض عمّا فقدته، وعندما تشعر بنقص في هذه العناية، تريد أن تظفر بها بطرق غير مباشرة،

فتتلكأ في تناول الطعام، أو تتأخر في غسل يديها حتى تأتي إلى المائدة، فتوبخها آفان على تصرفها، عندئذ قد تنهض وترفض المشاركة في تناول الطعام، ويكون ذلك في بعض المشاوير عندما تقوم بتصرف تطلب من خلاله أن يلتفتا إليها.

حينها يخبر زوجته بأنها تعاني من شعور بالحاجة إلى عناية أبوية إضافية، وهي تطلب ذلك بأسلوبها غير المباشر هذا.

الأمر بالنسبة إلى لاوين مختلف، فهو في عامه الخامس، وكونه ولد يريد أن يمارس بعض المسؤولية الذكورية وشيئاً من سلطتها في البيت، فيسمح له بذلك، ويرسله إلى بعض المحال القريبة ليشتري سلعاً منها، لأن أي قمع لمشاعره هذه قد يجنح به إلى شيء من حالة اللاإنتماء الأسري، ثم تتطور حتى يفقد الإحساس بروح المسؤولية تجاه أسرته، ولذلك يلح على زوجته كي تكون مرنة معهما، وتستجيب لميولهما وطلباتهما.

في حين أن سيروان لا يحتاج إلى عناية كهذه بسبب عمره، فهو لا يدرك بأنه خرج من واقع إلى واقع آخر، وها هو منسجم بهذا الواقع ويترعرع فيه بشكل طبيعي.

قال: سأتفق مع سائق سيارة كي يأخذنا في يوم من أيام هذا الأسبوع إلى نزهة في طبيعة هولير .

في المساء خرج إلى الطريق ، وبات يشير للسيارات حتى أبدى سائق موافقته على أخذهم في نزهة كهذه.

قال: سننطلق من الساعة الثامنة صباحاً، ولن نتمكن من العودة قبل العاشرة ليلاً لأننا سنمضي وفق برنامج يملأ اليوم كله.

الآن نحن في بدايات الصيف ، سنمضي في جولات بين الجبال، نقف في محطات إستراحة ، ندخل بعض القرى والأحياء، وفي المحطة الأخيرة، سنذهب إلى شقلاوة لأنها مدينة سياحية بامتياز.

قال: موافق.

قال: سآخذ منك أجري مائة وخمسين ألف دينار.

قال: تكرم عزيزي .

عندها قال بأنه ينصح بألاّ يذهبوا في يوم جمعة، أو يوم عطلة رسمية لأن المسافة التي سيقطعونها في ساعة واحدة، ستحتاج إلى ساعتين إذا كان يوم جمعة، أو يوم عطلة رسمية بسبب إزدحام السيارات.

ثم اتفق معه كي يأتيه في الثامنة من صباح يوم النزهة ، ليبدأ البرنامج ، وتبادلا أرقام الهاتف تحسباً لأي طارئ.

مضى السائق قائلاً: خوا حفيظ بافي لاوين.

أشار له بيده: بخير جي، سر جاو كاك رزكار.

أحس بأنه أنجز خطوة هامة من خطوات النزهة التي ستكون بعد يومين حسبما اتفق مع السائق، واستغل الوقت لشراء

المستلزمات.

في السابعة صباحاً نهضت آفان وبدأت ترتب للخروج، حيث قامت بتجهيز عدّة المشاوي، والسلطة، ثم أحضرت إ فطاراً خفيفاً، وأيقظتهم.

عندما بلغت الساعة الثامنة، طرق رزكار الباب، فخرجوا جميعاً.

حينها بهت وهو يرى امرأة وطفلاً في السيارة.

قال رزكار: فكرتُ أن أخفف عليك الأجر، أحضرتُ زوجتي وإبني كي نخرج نزهة عائلية مشتركة ونتقاسم كل شيء مناصفة، وإن لم تكن لديك رغبة، لا توجد مشكلة، سأعيدهما إلى البيت، وننطلق.

تنحّى بآفان جانباً وسألها عمّا ترى.

همسته: إذا أردتَ رأيي اتركهما معنا، وبدل أن ندفع له الأجرمائة وخمسين ألف دينار، سندفع له النصف، وفي كلا الحالتين سيبقى الرجل لأنه دليلنا وسائقنا.

قال: هل تظنين بأنك ستنسجمين معها ؟

قالت: إذا انسجم الرجل مع الرجل، سوف تنسجم المرأة مع المرأة.

عادا إلى السيارة وقال له: توكلنا على الله.

عندها نزل الرجل، ولحقته زوجته، بينما لبث الطفل في السيارة، تبادلت الزوجتان القبلات، ثم بدأوا جميعاً في حمل الأغراض إلى السيارة، وعندما رأى رزكار عدّة المشاوي قال: لقد جلبناها معنا.

عندئذ صعدوا السيارة، فقال الرجل: برأيي يا أبا لاوين، ننطلق إلى مصيف صلاح الدين، ستكون فرصة لتشاهدوا جمالية الطبيعة.

قالت المرأة من جهتها: مناظر جميلة، وتوجد حدائق للأطفال في الطريق يمكن لهم أن يتسلوا فيها.

قال: كما تشاء كاك رزكار.

إنطلقوا إلى طريق المصيف وبدأت جماليات الطبيعة تظهر مع مضيء السيارة، التفت إلى آفان، فرآها منسجمة مع المرأة وهي تتحدث معها بحميمية.

بعد نحو ساعة من التجول البطيء بين الجبال، وقفوا عند حديقة صغيرة تحتوي على بعض الألعاب للأطفال.

جلسوا يتناولون الشاي على المقاعد التي بدت خشبية بكراسيها وموائدها إلاّ أن رزكار قال: هذا ديكور يشبه الخشب، لكنها مصنوعة من الإسمنت.

جلسوا على الكراسي، واتجه الأطفال إلى اللعب، حينها قالت

المرأة: أياز مبسوط مع الأولاد.

قالت آفان: الأولاد أيضاً أحبوه يا دلسوز.

بعد ذلك اتجهوا إلى قلعة ديوين.

مضت السيارة بين السهول والجبال وهو يتأمل معالم وآثار هذه القلعة التي أبعدته نحم ٢٥ كم عن مدينة هولير، ومما يُروى أنه قد تم بناؤها في عهد شادي بن مروان، زعيم عشيرة الراوندييين، أجداد صلاح الدين الأيوبي، وبعد نشوب نزاعات بين الراوندييين والسلجوقيين، تم تدمير هذه القلعة.

تروي آثار هولير جزءاً من سيرتها، فهي الشاهدة على كل تلك الوقائع التي جرت: آثار جوار تاقان، تل قالنج آغا، تل كلك مشك، تل قصر، حصن بانمان، قلعة بوك، كهف شاندر، مصيف بيخال، مصيف جنديان، مصيف حاج عمران ، مصيف كلي علي بك.

تجولوا بين الجبال حتى اختاروا موضعاً ليتناولوا فيه الغداء، عندها بدأوا في تنزيل الأغراض، وكان رزكار أيضاً قد أحضر معه الطعام، فتولت المرأتان مهمة وضع الكباب، وشيش الطاووق في الأسياخ.

وبدأ الرجلان في إشعال الفحم.

بينما انطلق الأطفال لقطف الزهور، واللعب بين الرمال.

عندما جلسوا جميعاً يتناولون الطعام، أحس في تلك اللحظات وهو جالس بين الخضرة، تحيطه الجبال التي تنسال منها عيون المياه، أن هوليرلا تفصح عن جمالها إلاّ رويداً رويداً، وكلما أتى يوم جديد، أفصحت له عن لمسة جديدة.

تناولوا الطعام، ثم شربوا الشاي، وانطلقوا إلى النهر الصغير، حيث سبح الأولاد في النهر.

كانت لحظات ذهبية بالنسبة إليه وهو يرى أطفاله يسبحون في مياه هولير، وكأن هولير تعمدهم بيديها المباركتين في عذوبة مياهها.

عند ساعة العصر كان موعد الإنطلاق للتجوال بين جبال ومنعطفات ومنحدرات ديوين، والتقاط بعض الصور حتى أدركهم الغروب، عندها لاحظ جمالية عودة الماعز والأبقار إلى البيوت بكثافة.

قال رزكار: الآن سنذهب إلى شقلاوة، هل جئتها قبل الآن ؟

قال: جئتها مرة واحدة، لم أتمكن من رؤيتها بشكل جيد.

قال: تبعد عنها هولير نحو (٥١ كم)، وهي معتدلة الطقس لذلك تستقطب الناس ليقضوا أوقاتهم فيها خاصة في الصيف.

بدأ يقطع الطرقات، ويتعمد الدخول في القرى حتى بلغ المدينة.

تركوا السيارة في ركن، وراحوا يمشون في طرقاتها المزدحمة بالناس، حينها قال رزكار: شقلاوة معروفة بحلوياتها الطيبة.

تناولوا السجق المحشو بالجوز واللوز والبندق، وبعد نحو ساعة ونصف من التجوال، خرجوا من شقلاوة يمضون على مهل.

حينئذ رأوا أرتالاً من السيارات واقفة إلى جانب الطرقات الممتدّة، فقال رزكار: هذا هو الصيف في هولير، الناس يخرجون مساءً مع عائلاتهم ولايعودون إلاً بعد منتصف الليل، ومنهم مَنْ يستلذ البقاء وينام هنا حتى الصباح.

وهي فرصة للبعض كي يتناولوا كؤوس الخمر في هذه الأجواء حيث يجتمع بعض الرجال ويمضوا وقتهم هنا مع الخمر والأجواء المنعشة.

شقلاوة فيها خليط من المسيحيين، والمسلمين، ويتردد إليها السياح من العراق، ومن كل بقاع العالم.

كان رزكار يمضي وهو يتحدث له، بينما تتبادل آفان الحديث مع دلسوز، وقد غرق الأطفال جميعاً في النوم.

عندما بلغت الساعة العاشرة والنصف ليلاً وصلوا البيت، تعاونوا في تنزيل الأغراض، وحمل الأطفال.

دعاهم إلى الجلوس، فشكره رزكار قائلاً بأنه سيدعهم كي يرتاحوا.

بدت آفان متعبة، فتمتمت وهي تنام: تصبح علي خير.

تصبحين على خير. قالها وجاء إلى غرفته يستمتع بالاستلقاء في الفراش.

هَـمْهَمَ: كانت رحلة جميلة، كل ما فيك جميل في جميل.

ثم أضاف: أنتِ أيضاً تدللينني أكثر مما كنتِ

رانت نبراتها إلى سمعه: المرض أيضاً يُدلِّلُكَ، ثم استأنفت تقول بعد لحظة صمت: ها هو يتوّج دلاله لك بإكليل الشفاء.

ركنت إلى محراب صمت، فساد سكون هوليري في أبهة حضرتها، فكانت فرصته الثمينة أن يتأمل بهاء حضور مهد الكورد.

سيدة أمة الكورد الأولى ..

مدينة أبناء الجن الأزلية..

تناغمت حروف الكلمات على رخام صوته: هل مرضتِ يا هولير؟

هزّت رأسها هزّات إلى الأسفل وهي تقول: عندما يصيبني سقام، يأتي الربيع ذابلاً في تلك السنة، يتوقف الحمام عن الهديل، تبدو الشوارع ساكنة شاحبة، يكسو الحزن وجه الطرقات.

في صباحات سقامي، تحط أسراب البلابل والزرازير والحمام على نوافذي، وهي تملأ سماء القلعة.

تنتحب تارة، وتارة تشدو بأعذب ما لديها من أغنيات، وهي تبتهل إلى ربها الكريم كي يشفيني.

تكسو الأشجار غمامة حزن، تقوم ملكات النحل بعيادتي.

عندما ينتزعني الجبابرة بحدّ السيف من أيدي حفدتي، يلحقون بهم ويلات الهزيمة، يبدون خانعين، مستسلمين، مهزومين.

يقتلون رجالهم، يستبيحون حرائرهم على مرآة مني.

حينذاك يستقوى عليّ المرض وأنا أرى الأباطرة يخلعون لساني من واجهات طرقاتي، من مداخل دروبي.

يمزّقون ثوبي الأثير الذي تتنفتح بعبق ألوانه بشرتي، ويرغمون علي ارتداء ثوب غريب على بدني، فأبدو ذابلة منكسرة بألوانه.

يحرمونني من أحب ألوان الدنيا إلى فؤادي:

الأحمر

وهو يوهج شعلة الحياة في نفسي

الأخضر

وهو يمدّ ني بطاقة متجددة من لياقة الشباب

الأبيض

يأتي زهو بياضه ليحقق في ذرّات روحي

سكينة الإستقرار ..

نعيم الهدوء ..

أنس الأمان.

الأصفر

وهو قبلتي

محج جبهتي.

عندما أقيم صلاتي في دجى الليل على بياض سجادتي، وأحج بجبهتي على رونق صفار فراشتها.

خيّم صمت ليس بالطويل، فاستأنفت تقول بصوت شجي:

عندما أتأمل الأحمر، أشعر بذرات الحياة وهي تتناغم بذراتي

عندما أنظر إلى الأخضر، تنبعث إليّ كل روائح الربيع

عندما أرنو إلى الأبيض، تنتابني هالة من صفاء هدوء النفس

عندما أحدّق بالأصفر، تعتريني موجة من الأنس.

ثم ركنتْ إلى صمت كرة أخرى، فغدا يتأمل هالة جمالية ما تتأنق به من تحفة الثوب.. بدا في حالة تناغم مع كل لون على

حدا، يتنقل من لون إلى لون، من معلم إلى معلم، من إيحاء إلى إيحاء.

ينظر إلى العلامة التي علّمتها الفراشة الصفراء على جبهتها من أثر السجود، وهي تداوم على الصلاة.

قالت وقد كسرت زجاج الصمت: عندما أكون بعيدة عن رائحة أبنائي ، أكون ذابلة.

كل ذرة فيّ تركن إلى جبل من وهن.

لا ليلي، ليل

لا نهاري، نهار

لا صيفي، صيف

لا شتائي، شتاء

لا خريفي، خريف

لا ربيعي، ربيع.

عندما لا يكون أبنائي في محرابي، لا أطيق الحياة

يفقد الوقت كل طعم له دونهم.

حينها أزداد يقيناً أن لاأحد لي غيرهم

لاأحد لهم غيري

أنا لهم، وهم لي

وليس من سبيل لأحدنا في معزل عن سبيل الآخر

قال: يا لعظمة تفاؤلك يا هولير

قالت: تفاؤلي ينبع من قوة ما أؤمن به من سطوع الحقيقة.

كلما تكون قادراً على الحب، تكون قادراً على استيعاب كل ما يواجهك بهدوء وحكمة، لا شيء يستعصي حلُّه على الحبّ، بالحبّ فقط يمكنك أن تحيل خصم إلى صديق، نجاحك في إيصال مشاعر حبك الصادقة إليه هو خير سبيل لتخفيف حالة الخصومة وزوالها لديه.

كما أنك لا ترغب أن يستفزك أحد، عليك الاّ ترغب أيضاً أن تستفز أحداً، كما أن الكلمة الطيبة يمكن لها أن تبعث نشوة إلى فؤادك، فإن ذات الكلمة التي تصدر منك ستبعث النشوة إلى فؤاد مَن يسمعها منك.

كما أنك تأبى أن توجَه إليك كلمة قاسية، فعليك أن تأبى عن توجيهها لأحد.

عندما يقسو عليك أحد بكلمة قاسية، عليك ألاّ تبادله قسوة الكلمة ذاتها حتى لا تقسو عليه كما قسى عليك، حتى تكون أكثر رقياً منه في نظره، ونظرك.

يحبك الناس على قدر نجاحك في إشعارهم أنك جدير بمحبتهم

لك

عندما تكون قادراً على حبّ مَن لا يحبك، فتلك إشارة أولى من إشارات قيمة الإنسان لديك.

هكذا تدرج أجدادك الكورد في قوة محبتهم للإنسان كقيمة، كمعنى، كسمو.

لذلك يشعر أي كوردي بفخر لأنه كوردي، يمشي في الطرقات مرفوع الرأس، يمشي بشموخ، يدب خطواته بثقة لأنه يقف على جذره الكوردي.

لقد أيقن أبنائي أن كل الكوردي على الكوردي حرام، ماله، وعرضه، ودمه.

أيقنوا أن الكوردي عندما يشرع في أي إعتداء على أخيه الكوردي، يكون قد خرج عن إنتمائه إلى أمة الكورد.

كان من ثمرة هذا اليقين أنه أينع لديهم أن الكوردي عندما لا يعتدي على الكوردي، فإن ذلك يكون سبيله لعدم الاعتداء على غير الكوردي كذلك.

قال: هذه الخبرة الطويلة ماذا قدّمت لك ؟

قالت: أن يبقى قلبي ينبض بالحب، أن يزداد رهافة.

تعلمت من حكمة الحكيم

تعلمت من طيش الطائش

تعلمت من السنوات العاصفة

تعلمت من السنوات الهادئة

كيف يتحوّل الصبر إلى متعة

كيف يتحول كظم الغيظ إلى حالة نشوة

عندما تدرّب نفسك جيداً كي تتحصّن في مواجهة أعتى العواصف، في مواجهة طوارئ لم تحسب لها حساباً، تدرك أن لا باب يستعصي فتحه بمفتاح الصبر، عندما تمتلك مفتاح الصبر، سيكون بمقدورك أن تفتح أبواباً كانت موصدة وقد أصابها الصدأ.

دوماً، للصبر ثمرة يانعة لاترتمي من شجرتها إلاّ بيد إبن الصبر

دوماً يحمل الصبر بشرى للصبور

دوماً يحمل إليه قبس الفرج.

مهما بلغت العاصفة من شدتها، فإنها تركن إلى هدوء

الأصل في الحياة، الهدوء، الشدّة طارئة

الأصل في الحياة، السكون، الضوضاء طارئة

كل أمر يركن إلى أصله.

مايبلغه المرء بعد صبر هو خيرمما يبلغه قبل صبر.

تكون صبوراً، عندما تمارس مزايا الصبر

لاتكون صبوراً، عندما لا تمارس مزايا الصبر.

عندما تصبر، يهديك الصبر هدوءاً

عندما لا تصبر، يهديك اللاصبر اضطراباً.

تعلمتُ من الملوك الذين مروا بي سواء مرور الكرام، أو مرور اللئام.

لم يثر مخلوق شفقتي قط قدر ما أثارها الملوك، كانوا أكثر الناس الذين عرفتهم ازدواجية حتى أنني كنت في كثير من المواقف أتحاشى النظر إلى ديكوراتهم المقرفة وهم يتسببون في إلحاق الهول بالناس.

لذلك تعلمتُ منهم أن السعادة تتحقق للكائن بقدر ما يقدمها لغيره، وتتحقق له التعاسة بقدر ما يسببها لغيره.

علمتني التجارب أن وظيفة الحاكم هي أسوأ وظيفة يمكن للمرء أن يقوم بها، وأن نهاية هذه الوظيفة هي أرذل نهاية يمكن أن تُمنى بها وظيفة.

الآن، عندما يحضر كل هؤلاء كأقزام شبحية إلى ذاكرتي، تحضر كل تلك التركيبات المبهمة، كل تلك الأمراض المقيتة التي كانوا يُصابون بها عندما يتولون زمام هذه الوظيفة، وحينها كم كنت أتمنى فيما لو لبثوا في مقاماتهم السابقة، وحافظوا على ماء وجوههم.

لم يسبق لي أن شهدتُ كائناً وقد امتلأت نفسه بالطغيان كما

امتلأت نفوس الحكّام، ولم يسبق لي أن أخفيت مشاعري عنهم وأنا أقدّم لهم التنبيه تلو التنبيه، كانوا ينظرون لي نظرات ازدراء، تلك النظرات التي كانت تحيلهم إلى أكثر كائنات الله كوميدية وأنا أرنو إليهم، أرنو إليهم وهم في ذروة إنهماكهم في الحروب التي كانت تتصاعد وتشتدّ حتى تأكل الأخضر واليابس، تأكل الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

بيد أنني أقف بإجلال أمام ذكرى بعضهم، وقد ندروا، أقف بإنتشاء أمام مواقف إنسانية عظمى بدرت منهم، مواقف كانت ترسخهم بعمق في مشاعر إنتمائهم الإنساني النبيل.

العظماء يتكررون دوماً، بيد أنهم كالصدف النادرة التي تحظى بها حقب من الزمن، وتحظى بها مجتمعات من بني البشر.

كنتُ أساهر حاكماً، وأشاركه البكاء حينما كان يبكيه موقف إنساني، كنتُ أنظر إلى لآلئ الدموع تترقرق في عينيه كنفيس المرجان، وكنتُ أفخر بأنه حكمني، واقترن إسمه باسمي رغم أنه احتلني ونزعني من أهلي، وقومي، وعشيرتي.

كنتُ أفخر لأنه كان يترك أثر الرحمة والتآلف، كان يفجّر ينابيع قوة المشاعر الإنسانية في نفوس الناس.

أنا هولير، غنية، لاينضب غناي، غنية بكل هوليري، بكل زائر، بكل ضيف.

بدأ ينظر إليها كما لو أنه ينظر إليها أول مرة، يكتشف بريق

ملامح جمالها أول مرة.

يتذوّق مشاعر حب لم يسبق له أن أدركها، يستمدّ منها حالة من الإرتقاء والسمو في محراب جلالة بريق الجمال.

ترتسم بسمة على ضفة ثغرها الوردي وتخرج الكلمات بترنيمة صوتها الشجي:

أرى بوابات الغد مشرعة بما لم تكن مشرعة من قبل،

كما أنني أعيش الآن زهو قوة الحاضر، كما لم أعش من قبل.

لم يسبق لي أن كنت راضية عن أبنائي كما أنا راضية عنهم الآن،

لم يسبق لي طوال كل صفحات ذاك التاريخ الغابر أن عقدتُ عليهم آمالاً كما عقدتها عليهم اليوم.

رفع نظره إليها وهو يتمتم : مباركة أنت يا هوليرِ، أنت عروسة الأمل .